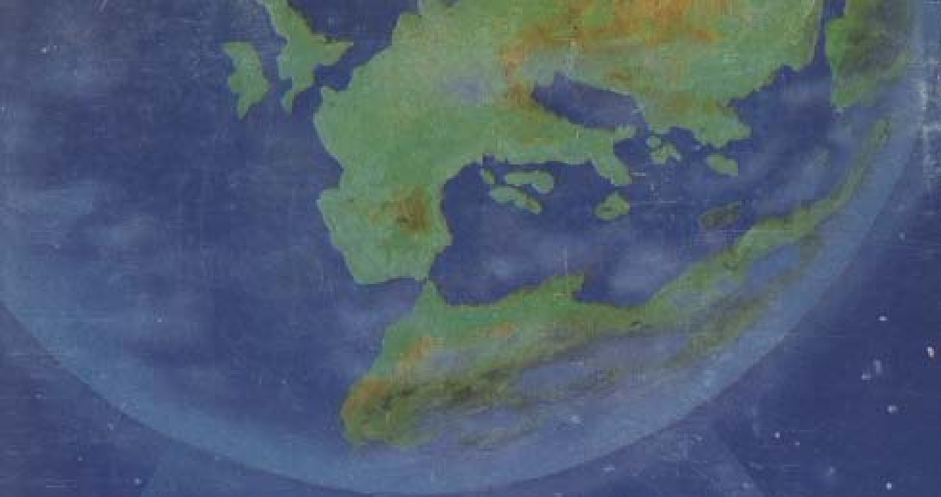


عالمية الإسلام

وقضايا العصر

محمد علوه

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية - طرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم

عالمية الإسلام

وقضايا العصر

محمد علّوه

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية - طرابلس

الطّبعة الأولى

1399 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 1990 ميلادية

منشورات جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية

الجماهيرية - طرابلس

الإهــداء

إلـى كل من رعـانـا صغـاراً ونـحـن ندرج في مجالس العلم والعـرفـان وأضـاء قلوبنـا بنور المحبة والإيمان وجذبنا إلى ساح العلم والـدراسـة والبحث وفتّق أذهـاننا على أسرار هذا الكون انطلاقاً من ذات الإنسان إلى كل ذرة من ذرات هذا العالم الواسع .

إلى من كان سبباً في إيمـاننـا وتنشئتنـا على الـروح الإسـلامية العاشقة لدينها والعاملة على النهوض به .

إلى اليـد التي انتشلتنـا من ضياع وأقالتنا من عثرة فنهضنا وكلنا أمل أن نحمل هذه الراية ونستضيء بتلك الشعلة .

إلى كل العاملين على نشر رسالة السماء في بقاع الأرض بهمة لا تضعف وعزم لا يلين .

إلى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله .

إلى هؤلاء جميعاً

أهدي هذا الكتاب

مقدمة الكتاب

إذا كانت حضارة الغرب قد دخلت عصر السرعة وسارت في سباق مع الزمن فأوجدت العقل الآلي والصاروخ والذرة، ونهضت إلى الكواكب بهمة عالية وأعطاها ذلك صفة العالمية بين حضارات الأمم، إلا أن ذلك لا يعني تفرّدها وتميزّها من باقي الحضارات وخاصة حضارة الإسلام. فالإسلام يظل هو السابق وهو الذي رسم الطريق الذي عبرت عليه تلك الحضارة والجسر الذي انتقلت فوقه. وإذا كانت الحضارة عامة والمدنية تقوّم بخواتيمها وبما تتركه من آثار فإن آثار هذه الحضارة اليوم لتنوء بأرزاء وتثقل بتبعات أكبر بكثير مما نهضت إليه من اقتحام الزهرة وعطارد وبقية الكواكب.

أن تخطط علمياً وعقلياً لتغزو الفضاء أو تغوص في الماء أو ترفع ناطحات السحاب، فذلك ما اشتركت فيه أكثر من أمة. أما أن تخطط من أجل أن تقتحم عروش القلوب ومداخيل النفوس فتحولها من الرذائل إلى الفضائل وتنشر الأمن والطمأنينة في العيون والقلوب، وترفع لواء العدل والمساواة بين بني البشر، وتؤاخي بينهم في وحدة إنسانية عالمية ليس فيها

أحقاد ولا ضغائن ولا ثارات ولا حروب. أن تهيء إنسان الأرض لأنبل غاية وهي خدمة بني الإنسان فتدفعه إلى نضال دائب من أجل صالح البشر فكراً وعقيدة وعلماً وصناعة وحضارة . . فهذا ما تفرّدت به رسالة الإسلام من بين كل الرسالات السماوية أولاً ، ومن بين كل الدعوات والمذاهب الوضعية القديم منها والحديث ثانياً .

الإسلام رسالة الخير والمحبة والهداية والفضيلة ، رسالة العلم والنور ، دين الحرية والكرامة الإنسانية ، دين العدالة والحب ، شريعة التآلف والمساواة الدين الذي يراقبك في كل عمل تأتيه ، في كل خطوة تخطوها ويلاحقك في كل قول أو فعل تقوم به ، في كل بناء تشيده ، في كل حضارة ترفع صرحها ليصحح لك النيّة فلا تنحرف عن الهدف السامي الذي أراده الدين وبذلك تضمن الحضارة لأبنائها هوية الاستقامة في دروب الحياة فلا تضلّ ولا تتعالى على البشر ولا تهدد وتتوعّد الإنسان على الأرض بدمار شامل ينتظره .

هذا الدين لم يكن عالمياً لأنه حوى دستوراً وقوانين عالمية وإنما لأنه طبق هذه القوانين ونجح في التطبيق وحرر نصف العالم من حكم الطواغيت وحرر الإنسان من أسر الشهوات ، وحرر الحكام من شهوة الحقد والظلم وإراقة الدماء ، وحرر الجميع من عبودية المادة وحرر المجتمع من كل ما يسيء إليه من عبادة الزعيم وألوهية الإنسان ووثنية العقيدة ، وخلص الإنسانية من

مآسي الحـروب وطغيـان الجبابرة في الأرض، وأقام دولة ممتدة من الصين إلى حدود فرنسـا يحترم أبنـاؤ هـا القانون والتشريع ويفخرون بها حققوه من تحرير شعوب الأرض وما نشروه من علم وعرفان.

العـالميـة سمـة هذا الـدين في كل خطـوة يخطـوها سواء في وحدة الأمة العربية أو الوحدة الإسلامية أو وحدة العالم على اختلاف أقطاره . . . ومازال الإسـلام يتطلع إلى اقتحـام الحدود ليكون منية البشرية والعامل على سعادة الإنسان التي افتقدها منذ قرون.

ولن تهدأ الأرض من النـوازع الشـريـرة والبغي والحروب إلا بالإسلام ولن تستطيـع الإنسـانيـة أن تجد راحتهـا إلا في أحضـانـه، فهـل سيتطلع بنو الإسـلام إلى دينهم فيعـرفـوا عظمته ويعملوا جاهدين على نشره في الخافقين ويكونوا كما قال الله فيهم ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾.

كل الدلائل تشير اليوم إلى صحوة إسلامية تلف أرجاء الأرض ولعله قريب ذلـك اليـوم الـذي نرى فيـه هذا النـور يعلو كل رابية ويجتاز كل حدود ليصحـح مسـيرة الإنسان في تاريخه الحاضر ويقود البشرية إلى طريق السلامة بشعـارات التـوحيـد والعلم وكـرامـة الإنسـان. وهذا عبء كبير ينوء بحمله الـرجـال، ولكنّ المخلصـين منهم يستسهلون كل صعب وهم ماضـون في الـدرب لا يأبهـون إلا أن ترتفـع راية الإسلام. وعلى قدر همم الرجال تكون

الأهـداف وتتحقق الغـايـات، فلنثق بأنفسنـا ولنثق بديننا ولنتقدم بخطوات جريئـة لنـوصل هذه الرسالة إلى أبناء الأرض لتتحول الأرض إلى جنة ينعم الجميع فيها بالحرية والعدالة والمساواة.

وما ذلك على الله بعزيز

دمشق في ١٠/٣/١٩٩٠م

الفصل الأول

التوحيد عقيدة عالمية

منذ أن كان الإنسان على وجه الأرض كانت عناية الله أسبق إلى الإحاطة به من أنفاسه فهداه سبيل الفطرة السليمة ومنحه عقلاً نيراً يفكر به ويقدّر ويرسم حياته على أكمل وجه. ولما كانت العقائد يخالطها أوهام الزمن فلا تزال بحاجة إلى التهذيب والتطهير كلما ابتعد العهد بينها وبين مصادرها الأولى، ولما كان الإنسان مبتلى بالأهواء والشهوات والحياة الدنيا بحيث تستطيع أن تسلب لبه إذا استجاب إليها وحتى لا تكون للناس على الله حجة لذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب السماوية لهداية الخلق وقد أعذر الله إلى خلقه بقوله:

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾. (سورة الإسراء)

وقد تتالت الرسل دعاة إلى وحدانية الله، عقيدة الفطرة الإلهية والتي ألهمها كل مخلوق، ولكن الناس على امتداد القرون كانوا يشذون في معتقداتهم عن عبادة الله الواحد إلى عبادة الأفراد أو الأجرام السماوية من نجوم وأقمار أو عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، ووصف لنا القرآن الكريم ضلال اليهود والنصارى وتحريف عقائدهم

بما جعلها غير صالحة لتطور الزمن وتقدم العلوم، مما أدى إلى اقتحام معتقدات أخرى أكثر عقلانية أو مصادمتها بالتطور العلمي والفكري للإنسان بحيث صارت لا تتلاءم مع تقدمه الحضاري.

وقد كانت عقائد البشر تتراوح بين الوحدانية لله، وبين الخلط بمعتقدات باطلة تتنافى معها بحيث تتغلب على عقول البشر أوهام العقائد الزائغة، وتضيع الحقيقة بين أحبار ورهبان أو كهان يقودون الناس إلى سراب مجهول وظلام عقائدي دامس لطالما فقدت الإنسانية فيه سبيل العقل ونور البصيرة، وفي غمرة هذه الظلمات المتراكبة كان الأنبياء هم هداة البشر ومنارات الأمم يصلحون ما أفسد الدهر ويقومون اعوجاج عقائد البشر بأسلوب رباني حكيم وإذا لم يفقه رسالاتهم كل الناس فما ذلك إلا من عنادهم وجهلهم ومن الحرية التي منحها الله لهم فلا إكراه في الدين، فالحقائق بادية وشواهد الوحدانية قائمة، والعقول ممنوحة لأصحابها بحيث لو أطلقوها في معالم السماء والأرض لاهتدوا إلى ذي العرش سبيلا وصدق الله تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة...﴾. (سورة الأنفال) (آية ٤٢)

وقد بلغ من جهل الناس أنهم ارتضوا أن يكون الإله بشراً مثلهم يأكل ويشرب وينام ويقوم، وقد ردّ الله على اليهود تأليههم للعزيرْ وقد كان بشراً ﴿وقالت اليهود عزيرٌ بن الله﴾. (التوبة)، رد الله عليهم.. ﴿ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا﴾ (آية ٣١)

وإذا كان اليهود قد عبدوا البشر وحرفوا الوحدانية أن تكون لله

وحده، فإنهم ما لبثوا بعد موسى بفترة، وقد مضى إلى مناجاة ربه، أن عبدوا العجل وجعلوه إلهاً في قصة مثيرة حقاً لأولئك الذين استسلموا لعقيدة نبي الله موسى بعد أن رأوا المعجزات والخوارق، وما هي إلا أيام حتى رجع موسى عليه السلام ورآهم على صورة تقشعر لها الأبدان وقد توجّهوا إلى عجل من ذهب. . . بل إنهم حرّفوا صورة الإله نفسه فكان إلههم ـ يهوه ـ ظالماً قاتلاً يأمر بذبح الأميين (غير اليهود) ذبح النعاج إذا ما انتصروا عليهم فلا هوادة ولا رحمة بل تجرّؤوا إلى قتل الأنبياء . . . وبهذا حرفوا الوحدانية عن طريقها الصحيح من الحق والعدل والسلام والمحبة للجميع . . .

يقول اللورد ماركولي الكاتب الانكليزي الشهير: «ولطالما أذّن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديماً في دينهم من البدع مستمسكين بها أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال»(١).

ويعلل نفس الكاتب نشوء الأديان الوثنية «بأن علماء المنطق يبنون عقائدهم على البرهان العقلي وهم يرون أن العقل لا يمكن أن يحيط بكل شيء بخلاف عوام الناس فمعظم أفكارهم إما خيالية أو وهمية فلا تجدهم يبنون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ومن هنا نشأت الأديان الوثنية في كل أمة وفي كل

(١) كتاب الإسلام دين الفطرة ـ عبد العزيز جاويش.

جيل واختلفت باختلاف ما صوره خيال معتقديها»[٢].

ولما كان من اليهود ما كان من تحريف وضلال وقتل وانتهاك للحرمات أرسل الله إليهم السيد المسيح وقد تبلورت فكرة المسيح في أذهان اليهود في خلع نير الامبراطورية الرومانية من على كواهلهم وأن يقيم لهم مكانها امبراطورية يكونون هم فيها الجنس الأفضل، ولكنه لم يوفق إلى ذلك، فعمل خصومه من اليهود ـ الذين رأوا في رسالته الروحانية تهديداً لنزعتهم المادية ـ عملوا على التآمر عليه، وهكذا وقفوا في وجه دعوات الأنبياء وراحوا يحرفون التوراة بما فيها من وحدانية وشريعة تقوم بها حياة الناس إلى عقيدة تتناسب مع مصالحهم الدنيوية.

النصرانية وعقيدة التثليث:

ثم جاءت النصرانية والتي بدأ تحريفها بعيد قرن من السيد المسيح عليه السلام وانقسمت إلى فرق ومذاهب وقد علق ماركولي على هذا الانحراف بقوله:

«ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم في إيمانهم ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم. فتمثل الإله لهم ي صورة آدمي

---

(٢) نفس المصدر.

مشى بينهم وشاركهم في أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال كما كان يبكي على القبور وينام في الحظائر ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك للعالم في لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القسِّيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان . . . »

وهكذا تأثرت المسيحية باليونان فنقلوا عنهم الآلهة المتعددة ودخل توحيدهم الشرك الذي صاروا إليه فتعددت مذاهبهم وقد وصف الله هؤلاء النصارى ناهياً إياهم عن عقيدة التثليث التي دخلت صفاء عقيدة المسيح عليه السلام :

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلّا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد . . . ﴾ . (النساء/ ١٧١)

ثم أثبت الله عبودية عيسى لا ألوهيته «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون» بل صرّح الله تعالى بهذه الحقيقة وعلى لسان سيدنا عيسى نفسه :

﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنتُ قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . . . ما

قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ . (المائدة ١١٦-١١٧)
وعلّق الإمام القرطبي في تفسيره على كلمة - وروح منه - في الآية فقال :

«هذا الذي أوقع النصارى في الإضلال فقالوا : عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا ولما كان عيسى يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فاستحق هذا الاسم - وروح منه - وقد ورد أن جبريل نفخ في درع مريم فحملت منه بإذن الله فقيل - وروح منه - كما علق القرطبي على قوله تعالى : ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ يقول(٣) :

«قال ابن عباس : يريدون بالتثليث الله تعالى وصاحبته وابنه» والنصارى مع فرقهم يجمعون على التثليث ويقولون : إن الله جوهر واحد له ثلاثة أقانيم فيجعلون من كل أقنوخ إلهاً ويصفون الأقانيم : «الأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود وبالروح الحياة وبالابن المسيح في كلام لهم فيه تخبط» .

ولكن الامام القرطبي يرد هذا الكلام رداً منطقياً :

«ومحصول قولهم يؤول إلى أن عيسى إله بما كان يجريه الله سبحانه على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وقالوا : قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفاً بالألوهية فيقال لهم : لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلاً

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن : المجلد الثالث للامام القرطبي .

به كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته وليس هو كذلك فإن اعترف النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلاً بها، وإن لم يسلموا لذلك ـ ولا حجة لهم ـ لأنهم معارضون ـ في كلامهم ذاك ـ بموسى عليه السلام وما كان يجري على يديه من الأمور العظام مثل قلب العصا ثعباناً وفلق البحر واليد البيضاء والمنّ والسلوى، وكذلك ما جرى على يد الأنبياء، وإن أنكروا ذلك فننكر ما يدعونه هم أيضاً من ظهوره على يد عيسى عليه السلام، فلا يمكنهم إثبات شيء من ذلك لعيسى فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن ويكذبون من أتى به فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر».

وما أروع رد البوصيري في همزيته وهو يعالج قضية التثليث بأسلوبٍ أدبي ساحر وحجج ليس لهؤلاء دفع لها(٤):

خبرِّونا أهل الكتابيين من أيـ
ـن أتاكم تثليثكم والبَداء

(والبداء: قال اليهود إن الشرائع لا تنسخ بعضها وإن النسخ يقتضي البداء وهو ظهور مصلحة في الحكم كانت خافية على الله في الأمر المنسوخ فتعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً)

ما أتى بالعقيدتين كتابٌ
واعتقادٌ لا نص فيه ادّعاء

---

(٤) ديوان البوصيري.

والــدعــاوى ما لم يقـيـمـوا عليهـا
بيـنــات أبـنــاؤهــا أدعـيــاء
ويروح البوصيري ناقضاً عقيدة التثليث:
ليت شعــري ذكــر الثــلاثــة والــوا
حد نقصٌ في عدكــم أم نماء؟
كيـف وحّــدْتُـم إلهــاً نفى التــوحيـ
ـد عنــه الآبــاء والأبــنــاء
أإلــه مركــبٌ ما سمــعــنــا
بإلــهٍ لذاتــه أجــزاء
ثم يروح ساخراً بأسلوب شعري معالجاً قضية من أعظم القضايا عند النصاري
ألــكــلٍ منهــم نصــيــبٌ من المُــلْـ
ـك فهــلا تميّــز الأنــصــبــاء[٥]
أتــراهــم لحاجــة واضطــرار
خلطــوهــا ومــا بغــى الخــلطــاء
أهــو الــراكــب الحــمار فيــا عجــ
ــز إلــه يمــسّــه الإعــيــاء
أم جميــعٌ على الحــمار لقــدْ جلّ
حمارٌ بجــمــعــهــم مشّــاء

(٥) الأنصباء: جمع نصيب: أي ما هو نصيب الأب والابن وروح القدس من الكون.

أم سواهـم هو الإلـه فما
نسبـة عيسـى إليـه والانتـماء

أم أردتـم به الصفـات فلم خُصّـ
ـت ثلاثٌ بوصـفـه وثـنـاء

ثم يعلق على قتـل اليهـود له ـ في اعتقـادهم ـ وقـد كان يحيي موتاهم فكيف غلبته اليهود

قتـلتـه الـيـهـود فيـما زعـمـتـم
ولأمـواتـكـم بـه إحـيـاء

أم هو ابـن الالـه ما شاركـتـه
في معـاني الـنـبـوة الأنـبـيـاء

إن قولاً أطـلقـتـمـوه على الـلـ
ـه تعـالـى ذكـراً لقـولٌ هراء

وقـد أورد العـلامـة محمـد فريـد وجدي عن نهج البلاغة مقولة لسيـدنـا علي بن أبي طالب يصـور عقيدة النصارى ومجملاً إياه بقوله: «كـذب العـادلـون بك إذ شبّهـوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين وجـزّؤ وك تجزئـة المجسّمات بخواطرهم وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آيـاتـك..»(٦) أما قوله: كذب العادلون فهم الذين جعلوا الأصنام أو

(٦) كتاب الإسلام دين الهداية والإصلاح ـ محمد فريد وجدي ـ سلسلة دار الهلال.

غيرهـا من المعبـودات معادلة لله في الخلق والإيجاد وهؤلاء وصفهم الله بالكفر في مطلع سورة الأنعام: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾.

وأما قوله: «وجزؤوك تجزئة المجسمات . . » فمأخوذ من قول الله في سورة الـزخـرف: ﴿وجعلوا له من عبـاده جزء إن الإنسـان لكفـور مبـين﴾ أو قولـه «أم اتخـذ مما يخلق بنـات وأصفـاكم بالبنـين» يقـول القرطبي: «الجزء هو العدل والجزء هنا البنات فقد عجب المؤمنون من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله وجعلوا له شريكاً أو ولـداً ولم يعلمـوا أن من قدر على خلق السمـوات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضـد به أو يستأنس به لأن هذه صفـات النقص، وقـد جعلوا له من عبـاده جزء فوصفـوه بصفـات المخلوقـين فقـالوا الملائكة بنات الله فجعلوهم جزء له وبعضاً».

وقد رد الله عليهم هذا الافتراء رداً محكماً في صورة كراهيتهم هم للبنـات إذا رزقـوا بهن ﴿وإذا بشّـر أحـدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهـه مسـوداً وهو كظيم﴾. (الزخرف /١٧)، بل إن الله تحداهم أن يثبتوا بالبرهان والدليل صحة مقولتهم إن لله ولداً وإلاّ ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه﴾. (سورة المؤمنون)، وفي حوار القـرآن الكـريم لهؤلاء وصـل إلى حد أن تنـزّل معهم إن استطـاعـوا أن يثبتـوا ذلك أن يكون الرسول أول عابد له ﴿قل إن كان للرحمن ولـد فأنـا أول العابدين﴾. (الزخرف /٨١)، فلما عجزوا عن ذلـك راح القـرآن الكـريم يثبت رسـالـة عيسى عليه السلام وبشريته

بقـولـه: ﴿ما المسيح بن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقـة كانـا يأكـلان الطعام﴾. (المائدة / ٧٥)، ولهذا فمن رأى غير هذا الرأي بدون حجة أو دليل فقد صدق فيه قوله تعالى:
﴿لقـد كفـر الـذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد .. ﴾. (المـائـدة / ٧٣)، بل إن الله لينفي ألـوهيـة عيسى وعلى لسـانـه بقـولـه: ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم .. ﴾. (المـائـدة / ٧٢)، ألا ترى معي كيف أثمـرت تلك العقيـدة في تأليـه المسيـح تضـاربـاً بين العقـل والعلم وبـين الـدين والكنيسـة بحيث لم تستطـع الكنيسـة إقنـاع هؤلاء العلماء فوقفـوا في طريقهـا وتـردوا إلى مذاهب عقلانية مختلفة فضل من ضل واهتدى من اهتدى.

الإسلام وصفاء التوحيد:

أما الإسلام كعقيدة فقد قامت على أساس وحدانية الله وتنزيهه عن الشـريـك والصاحب والولد والند والنظير فليس كمثله شيء وقال الأصوليون «كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك».

وقد أثبت وحدانية الله بما يليق مع جلال الله وجماله من صفات وتوحيد ونفي ذلك عن البشر أو الأصنام أو عناصر الطبيعة.

وإذا كان الإسـلام قد ناهض الهيلينيـة سيـاسيـاً وتأثـر بها مثلما تأثـرت بها المسيحيـة وأمكنه استيعاب مناهجها الثقافية والدينية، لكن

آرنولد توينبي الكاتب الانكليزي الكبير يقول: «بأن ثمة فارقاً بين تأثر كل من الديانتين، فقد تأثرت المسيحية عن رضى واختيار بما أنكره الإسلام تماماً، ـ ويعني به تأليه السيد المسيح والفكرة التي تستتبعها من اعتبار الربوبية ذات أقانيم ثلاثة ـ فالإسلام يضفي على عيسى مكانة سامية لكنه لا يسلم بألوهيته قط كما ينكر صلبه وفكرة التكفير عن الخطيئة البشرية الأزلية ويعتبر التثليث شركاً بوحدانية الله لا يغتفر» كما يعلن توينبي عن عدم تأثر الإسلام بالمخاطر التي تأثرت بها الديانات السابقة(٧):

«وإذا كان استخدام العقيدة الدينية الإسلامية قد عرض الإسلام للمخاطر التي تعرضت لها العقائد الدينية الأخرى التي استخدمت الدين أداة لإدراك أهداف سياسية فإن الإسلام وحده قد سلم من هذه المخاطر»، ويزيدنا مشيراً إلى جوهر الوحدانية الأصيل في الإسلام «وبمرور الأجيال تبين عظم الرسالة الروحية التي أبلغها محمد ﷺ إلى البشرية، وإذا كانت الأديان العليا الأربعة التي ماتزال قائمة في القرن العشرين: الإسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية مجرد ألوان أربعة لمنهج واحد فإن الإسلام ـ في رأيه ـ قد أعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادي في تمسّك الأديان الثلاثة الأخرى بهذه العقيدة الجوهرية».

---

(٧) كتيّب «حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ: فؤاد محمد شبل.
سلسلة المكتبة الثقافية العدد /٢١١/ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

ومـالنـا نبعـد وهذا كتاب الله تعالى يكاد أن يكون أكثر من ثلثه قائـماً على إثبـات وحـدانيـة الله فطـرة وعقيدة، عقلاً ومنطقاً وحججاً عقليــة بل وتحـديـاً لكـل من يحاول أو يظن أو يعتقـد أن لله شريكـاً، وبتصفـح كتـاب الله عز وجـل نرى أن جل السـور المكيـة إنـما جاءت لإثبات هذه الوحدانية بطرق شتى وأساليب مختلفة من حوار رائع بين الأنبيـاء وأممهم، ومن مخاطبـة للعقول الإنسانية عبر التاريخ. وما يزال التحدي قائماً وما يزال القرآن الكريم يخاطب جميع البشر نافياً أن يكون لله شريك أو مساعد أو ولد واستمع معي إلى هذه الآيات:

﴿أم لهم شركاء شرّعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله﴾. (سورة الشورى) (آية ٢١)

﴿واسأل من أرسلنـا من قبلك من رسلنـا أجعلنـا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾. (الزخرف) (آية ٤٥)

﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾. (الأحقاف) (آية ٢٢)

وهذا منطق المغلوب والعاجز عن إثبات ألوهية تلك الأصنام بل تحداهم الله أن تنصـرهم تلك الآلهـة ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلّوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾. (الأحقاف) (آية ٢٨)

وانظـر إلى تصـوير موقف هؤلاء المشركين يوم القيامة ودفاعهم عن أنفسهم كذباً: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين

شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾. (سورة الأنعام) (آية ٢٢)

ثم أثبت القرآن الكريم تمكن تلك العقائد الضالة في نفوسهم وأنهم لن يتراجعوا عنها ولو رأوا الدلائل واضحة ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾. (الأنعام) (آية ١١١)

هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم كثيرة تنعي تلك العقائد الباطلة التي خرج بها أتباع الديانات السابقة عن توحيد الله إلى عبادة آلهة لا تضر ولا تنفع ولكن رسالة الإسلام حافظت على تلك الوحدانية بصفائها ونقائها والذي أتى به الرسل جميعاً، وقد أشار القرآن إلى توحيد الرسل جميعاً لله فمن ذلك دعوة نوح قومه إلى الوحدانية:

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قومي اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾. (الأعراف)

ومنها دعوة سيدنا هود قومه: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قومي اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾، ومثله دعوة صالح قومه ثمود ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قومي اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ وهذا شعيب يدعو قومه مدين ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقومي اعبدوا الله مالكم من إله غيره . .﴾. (سورة الأعراف)

وهذا أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام يوصي أبنائه بكلمة

التوحيد:

﴿ووصى بها إبـراهيم بنيـه ويعقـوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾. (سورة البقرة ١٣٢)، ومر معنا من قبل دعوة عيسى عليه السلام إلى وحدانية الله وذاك موسى عليه السلام بعد أن حطم صنم وإله السامري التفت إلى بني اسرائيل مخاطباً ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾. (سورة طه آية ٩٨).

وهـاهم كفـار قريش يفـدون على رسول الله قائلين: صف لنا ربك فنزل قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.

بل إن بعض كفار قريش أتوا رسول الله ﷺ طالبين حلاً وسطاً أن يعبد آلهتهم يوماً ويعبدون هم إلهه يوماً فأنزل الله عليه ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد.. ﴾. (سورة الكافرون)

وبهـذا تلتقي دعـوات الأنبيـاء والرسالات السماوية على عقيدة التـوحيـد بالحجـة والـدليل والبرهان المنطقي. وما زال القرآن يتحدى ويخاطب كل عقول البشر أن تبرهن على وجود إله قادر خالق غير الله سواء أكان حجراً أم إنساناً أم شمساً أم قمراً..

﴿قـل هاتـوا برهـانكم إن كنتم صادقين﴾ (سورة البقرة).. وإلا فـ ﴿هل من خالق إلا الله... ﴾.

لقاء الدين والعلم في إثبات الوحدانية :

وإذا كانت الديانات السماوية بما في ذلك الرسل والأنبياء أجمعوا على وحدانية الله فإن كتاب الله خاطب عقول البشر أن يتفكروا في ملكوت السموات والأرض. فإن ضلّت شرائعهم فإنهم واجدون في الكون آية بل آيات أخرى وأدلة عملية على عظمة وجود الله ، وقد فتح أمامهم المجال واسعاً وأطلق العقول لتفكر وتبحث لتصل عن طريق الآيات المرئية في الكون إلى تلك الحقيقة الخالدة ، وهذا ما فعله العَلماء اليوم ومنذ أربعة قرون تفكراً وتدبراً واستقراء واستنتاجاً ، وقد توصل المنصفون منهم والمتنوِّرون الذين استجابوا لنداء العلم والعقل بنزاهة وأمانة ودون تعصب أو تزمت أو جحود للحقائق ، توصّل الكثير منهم إلى إثبات وحدانية الله عز وجل رغم انحراف شريعتهم عن ذلك ورغم جمود الكنيسة على مبدأ التثليث والصلب والتكفير . . .

ونظرة واحدة إلى كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» تثبت لك ذلك :

يقول مير يت كونجدن عالم الطبيعة والفيزياء : «إن جميع مافي الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته» .

وهذا جون وليام كلوتس عالم الوراثة يقول : «السماء تشهد بجلال الله ، وإحكامها يدل على بديع صنعته» ثم يسخر من الملحد

بقـولـه «يقـول الأحمق في نفسـه ليس هناك إله». وهذا أستاذ الكيمياء الجيـولـوجيـة رونـالد كار يتوصل في أبحاثه إلى مناجاة الله بهذا النشيد العـذب: «يـا إلهي العظيم عنـدمـا أنظر بعجب ورهبة إلى كل العوالم التي صنعتهـا يداك وأبصـر النجـوم وأسمع هدير الرعد وزمجرته عندئذ تتجلى لي قوتـك في كل أرجـاء الكون، وعندها تغني روحي وتناجي: إلهي الكبير ما أعظم إبداعك ما أعظم إبداعك».

وذاك زمـرمـان اختصـاصي الـتر بة يقول: «كلما ازددت دراسة وتعمقـاً في دراسـة طبيعة التر بة والنباتات ازداد إيماني بالله وسجدت له إعجاباً وتقديساً».

بل ها هو الفسيولوجي آندرو كونواي يقطع الطريق على أولئك الملحـدين الـذين يظنـون بأن في حوزتهم الـدليل على عدم وجود الله بقـولـه: «إن أحـداً لا يستطيـع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول إن الله موجود كما أن أحداً لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول إن الله غير موجود».

ومـا تلاقي هؤلاء العلماء في الطب والفلك والـتر بـة والحيـوان والـذرة والكيمياء والطفيليات، ما تلاقيهم جميعاً على إثبات وجود الله مصـادفـة وإنما عن طريق دراسة علمية عملية توصلوا من خلالها على أن كل ذرة في الوجود لا تتحرك إلا بإرادة الله وأن هذا الكون لا يتحرك إلا بقـوانـين تنتظمـه وتـديـره من الـذرة إلى المجرة، قوانين فوق طاقة عقـول البشـر والتي هي أعجـز من أن تحيط بها فكيف تفسِّرها أو تكون

موحدة لها ولهذا خضعوا وسلموا لله الخالق الحكيم.

وإذا كانت الشعوب لم تستوعب كلمة التوحيد التي هي نداء الفطرة فليس ذلك إلا لأن أهل الشقاء قد أفلحوا في إضلالهم وحجب الحقيقة الساطعة عنهم وأن المنحرفين والذين أعمتهم الأهواء والشهوات وسحرهم بريق المادية قد أغرقوا العالم بما غشّى على عقول الناس أنوار الحقيقة وألهاها عن التفكير بخالقها فاتخذت أرباباً شتى من دون الله . . .

وإذا كان الأمر كذلك فإن عقلاء وحكماء كل عصر، وعلماء هذا القرن قد أثبتوا وبالدليل القاطع وجود الله فأعلنوا توحيدهم رغم ظروفهم القاهرة غير مبالين إلا أن تعلو كلمة الحق فوق كل رابية، إن صرخة التوحيد في قلب كل مخلوق ولكن لا يسمعها إلا الأحياء وإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم النداء ولكن الله هو الذي يريهم آياته مقروءة في كتابه ومرئية في أرضه وسماواته.

إن شواهد وجود الله في الكون أسطع من نور الشمس عرفها من عرف وجهلها من جهل آمن بها من آمن وكفر بها من كفر، ورغم ذلك ما أكره الله أحداً على عقيدة وإنما رسم أمامه الطريق وزوّده بكل ما يوصله إلى دار السعادة ليتبصر بعقله ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. (الكهف آية ٢٩)

وبالتقاء توحيد الأنبياء والرسل مع توحيد العلماء في هذا القرن يثبت لدينا أن التوحيد عقيدة عالمية، وليست عقيدة نبي أو عصر أو

قرن واحد وإنما هي أصل الرسالات السماوية جميعاً، والغاية التي انتهى إليها العلماء في دراساتهم، تلك هي رسالة الإنسانية والعقيدة التي تجمع بين الأمم في نطاق من التعاون والتحابب حيث لا ظلم ولا إلحاد ولا بغي ولا فساد في الأرض إن رسالة التوحيد ستظل تؤتي أكلها خيراً وبركة ورقيّاً للإنسانية فوق هذه الأرض، كي تأوي إلى جناب الله فتجد أمنها وسلامها وتسمع نداء الله لها

﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنّى تصرفون﴾

(سورة يونس اية ٣٢)

الفصل الثاني
الإسلام دين العقل والعلم

عندما بزغ نور الإسلام على العالم كان الناس يموجون في جهالة جهلاء وضلالة عمياء تنزلت فيها العقول من علياء الكرامة والتقدير لأبنائها إلى حضيض الاضطهاد والجور والتعسّف، فكانت أمم الأرض قد أوشكت أن تتقوقع فيها العلوم وتنحصر في إطار من عصبية الدين وجموده بحيث راح المتنوِّرون من العلماء يلاحَقون ويُقتَلون ويفرون من وجه السلطة التي أرادت تحجيم علومهم وعقولهم بما يتناسب مع مصالحها فارتدّ الإنسان عن أن يكون سبباً في تطوير نفسه، فضلاً عن أن يساهم في حضارة العالم بما أوتي من علم وعقل، وكذلك تنتهي الأمم عندما تضيع فيها كرامة العلم وإجلال العقول.

وإذا كانت الحضارات لا تقوم إلا بسلطان العلم والعقل، وكان العلماء في مثل ذلك الحصار النفسي والمادي الذي كانوا عليه قبل الإسلام فماذا يبقى لتلك الحضارات من رقي أخلاقي أو أدبي تتباهى به بين الأمم. ولكن الحياة لها قوانين والأمم تسير ضمن أنظمة تخضع لها شاءت أم أبت، فإذا كان أهون ما لديها العلم، وأحقر ما تنظر إليه هم العلماء فما أسرع ما تنذر بزوالها ولو كانت على مُلْك عظيم وسلطان

جبار. وقد عرفنا أمماً كثيرة كان لها صولة في الميدان السياسي والحربي وإخضاع الشعوب ثم ما لبثت أن استمرأت قواعد الجهل والعداء العقلي للإنسان فكانت لعنة التاريخ والإنسانية حيث حملت معول الهدم والفتك وراحت تطعن الإنسان في أعز ما يملك وهو العلم والعقل، فمسخ الإنسان فيها حتى صار أذل من وتد . . . وكانت النهاية بزوال تلك الدول والممالك.

حرية الفكر قبل الإسلام:

وإن شئت دليلاً على ذلك فانظر إلى الإغريق كيف بدت فيهم نزعة الخروج على الأديان وكيف راحوا يعادون هذا الإنسان العالم الواعي، ويحرقون الكتب ويحرمون بيعها، هذا سقراط يستعرض عقائد قومه المألوفة ويمتحنها بمحك الفكر غير آبه بتقاليدهم، سالكاً مسلك التفكير الصحيح، فماذا رأى؟ شاهد اليونانيين على حالة من التخبط وتجاوز الحق إلى الباطل، والتبست الأمور عليهم حيث اعملوا في العلوم معاول التشكيك ضلالاً وتضليلاً، فراح سقراط يخاطبهم على قدر عقولهم ورغم أن أثينا يومئذ أكثر البلاد ديمقراطية وتسامحاً وحرية نجد التاريخ يسجل مالا نصدقه من الاضطهاد الذي نال أصحاب الدعوات إلى حرية التفكير والاحتكام إلى العقل، ولكنهم ثاروا عليه واعتبروه ملحداً ومفسداً لعقائد الشباب وقتلوه سنة ٢٩٩

ق . م . وبعد سبعين سنة اضطر ارسطو أن يرحل عنهم حتى لا يلقى نفس المصير[٨]

وقد ترك كل من أفلاطون وأرسطو كذلك أثراً في تحرير عقول أهل أثينا، كما تركت الفلسفة اليونانية أثرها في تحرير العقل الإنساني وفي الشرائع الرومانية إذ كان أساس القانون المدني في الامبراطورية الرومانية إباحة علنية لجميع الأديان والجهر بسائر الأفكار.

وقد لازمت حرية الدين، وحرية الجهر بالفكر الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية في أوربا فضربت هنالك حولها نطاق الحَجْر والحظر لما كانت عليه من التقاليد الوثنية[٩] وكان الرومان هم الذين بدؤوا الحظر على الأديان لأنهم كانوا يعتبرون المسيحية فرعاً من اليهودية التي تناهض بطبيعتها، الوثنية الرومانية، حتى أصدر «تراجان» قانون الحكم بالقتل على من يدين بالنصرانية، وجاء الذين من بعده فنظموا المذابح للمسيحيين بكل فظاعة وبشاعة. وما ذلك إلا لأن المسيحية كانت تقبّح ما اعتاد عليه أباطرة الرومان من رؤيتهم ضرورة أن تخصهم الشعوب بالعبادة توحيداً لكلمتهم وتعلقاً بعروشهم، وبدخول قسطنطين الكبير في النصرانية دارت الدائرة على العقل بالاعتقال والاسترقاق، فبينما كان رجال المسيحية قبل ذلك

---

(٨) كتاب الإسلام دين الفطرة والحرية ـ عبد العزيز جاويش.

(٩) الإسلام دين الفطرة والحرية ـ عبد العزيز جاويش.

ينـادون بأن التسـامح واجب وأن العقيدة لا يلزم بها الإنسان جبراً، إذ بهم يفتنـون بدخـول قسطنطـين إلى النصـرانيـة وانقلب الأمر عندهم حيث صاروا يرون أن النجـاة لا تكـون إلا بقبـول المسيحيـة وراحـوا يقيمون المذابح المروعة لكل من خالفهم.

وكـان من هؤلاء سانت أوغسطـين (مـات ٤٣٠ م) فقـد وضع نظـام اضطهـاد من لا يقبل النصرانية واستمر ذلك من بعده متبعاً إلى القـرن ١٢ م؛ وراحـوا يلاحقـون الناس في كل ما يظهر فيهم من بدع وعقـائـد حتى إنـه أقيم نظام التفتيش في المنازل ١٢٣٣ م للبحث عن الملحـدين وتم في عهـد أنـوسنت الـرابـع ١٢٥٢ م تنظيم ذلـك ومنح البابوات السيطرة المطلقة لتنفيذ ذلك، وساعدهم على تنفيذ ذلك ما وضعـه الأبـاطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية. . ورغم حرية التفكـير عنـد فريدريك الثاني فقد أصدر أمراً بأن كل من ينكر ويبتدع شيئـاً في النصـرانيـة يعتبر خارجاً على القانون، يحبس ويحرق وتصادر أمـوالـه وأمـلاكـه وطبق ذلـك خمسة عشر عاماً في إيطاليا وألمانيا. حتى نسـخ عام ١٦٧٦ م[١٠]. وقـد استمر تطبيق هذه القوانين الجائرة على المسلمـين واليهـود بأفظـع الطـرق الـوحشيـة. ولم تنسـخ إلا في القرن التـاسـع عشـر وكـانت القاعدة التي قام عليها نظام التفتيش (خيرٌ أن يقتل مئة من الأبرياء من أن يلحد فردٌ واحد).

---

(١٠) نفس المصدر السابق.

ولما ظهرت فلسفة أرسطو مشروحة بواسطة العرب أواخر القرن ١٢ م وعلى يد ابن رشد وأمثاله كان لها دور كبير في تحرير عقول أوربا ورغم ذلك ناهضها بعض البابوات ووقفوا في وجهها وحكموا بفسادها . .

وهكـذا عملت الكنيسة على اضطهاد العقول وملاحقة العلماء وحـاصـرت أصحـاب الأفكـار الجـديـدة ولجأت إلى القتل والتشريد فعملت بهذا على تأخـر ركب الحضـارة، ولـولا بصـيرة العرب وتفتح العلوم فيهم في الأنـدلس، والتي ركب الغـرب جسـوراً لنقـل علومهم لبقيت أوربـا تسبـح في عصـر الظلمات إلى قبيـل القـرن التاسع عشر . . . ولم تتخلص العقـول من تسلط الـلاهوت المسيحي ومن ملاحقة القسـاوسـة والرهبان إلا عندما أصدر الكاردينال مانبج الانكليزي عام ١٨٦٤ م، بلاغاً قال فيه:

«إن لكـل إنسـان أن يعتقـد ما يراه بنظـره صحيحـاً وأنـه ليس للكنيسة حق الإكراه على العقائد، وأن علم ما وراء الطبيعة يمكن بل يجب ألا يتقيـد بالـوحي ولا برغـائب الكنيسة، وأن للكاثوليكيين حق دعـوة من يشـاؤ ون من مهـاجري الملل الأخرى، وأنه يجب على البابا أن يقيم في سلام مع الرقي العلمي والحرية والمدنية»[١١].

---

(١١) نفس المصدر السابق.

نظرة الإسلام إلى العقل والعلم :

في تلك الأجواء المظلمة والاضطهاد المتعمد لملاحقة العلماء وفرض الآراء المتحجرة التي لا تتوافق مع العقل والمنطق، وفي غياب العالم المنقذ الذي يستطيع أن يحرر العقول البشرية من الأغلال التي قيّدتها، في هذه الأجواء أشرقت شمس الإسلام لتعلن نهاية عهود الظلم والظلام وتطلق العلم من إساره وتأخذ بيد العلم في أدنى الأرض وأقصاها ليكون سبباً في تحرير الإنسان أيّاً كان لونه أو جنسه فلا سيطرة لكنيسة ولا لمذهب ولا لحاكم ولا رأي إلا ما يبنى على العقل والمنطق والحكمة .

وكانت أول كلمة نزلت من التشريع الحكيم كلمة - اقرأ - داعية إلى العلم وتفتح العقول، ومناهضة للجهل والجاهلية ومنزهة العقول عن الغايات والعصبيات في نطاق دين هو الفطرة السليمة .

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ تحطيم قواعد التدين في مرحلة الجهل، وهي التقليد الأعمى للآباء والأجداد وإهمال النظر الحر وإغفال التفكير ومنابذة العلم إلا ما كان موافقاً للدين في نظرهم، فأهاب الإسلام بالناس إلى اعتبار العقل وتقديره وسيادة العلم والدعوة إلى النظر والفكر والبرهان والتحرر من الجاهلية .

وإذا كنا رأينا أن غزاة أوربا والأمم السابقة كانوا يفتتحون البلاد ومعهم دعــاة الـدين ينشــرون دعـواتهم في ظروف الإكـراه والضغـط والإلزام فإن رسول الله ﷺ قد أرسى العقيدة على أرسخ قواعد العلم والمعرفة وفي منتهى الحرية لكل إنسان حيث لا إكراه في الدين.

وقـد فاجأ الإسـلام الناس جميعاً بقواعد جديدة للعلم لم يتوقعوا أن يسمعـوهـا كان أساسها قول النبي ﷺ: [الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقـل له]. بينـما كانت سنّـة قادة الأديـان قبـل ذلـك في مشارق الأرض ومغاربها كما تقول دائرة معارف القرن ١٩ [١٢] «أطفيء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى».

وبهـذا طغت الكنيسـة على عقول أبنائها وناهضت كل فكر نيّر وعقل متحرر إلى درجة الطرد أو التعذيب أو القتل فعملت على تراجع حضـارة الإنسـان على الأرض بينـما كان أول ما دعـا الإسلام إليه هو العلم والتفكـير وإيقـاظ العقـول من سباتها ومن ثم نعى على التقاليد السـائـدة، والمقلدين للآبـاء والأجـداد بغـير علم ولا هوى ولا كتاب منير.. قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينـا عليـه آباءنا أولو كان آباؤ هـم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[١٣]. (البقرة / ١٧٠)

---

(١٢) كتاب الإسلام دين الهداية ـ محمد فريد وجدي.

(١٣) سورة البقرة.

ورغم عداوة الآخرين لهذه القاعدة الحكيمة ووقوفهم في وجه الإسلام فإن الإسلام لم يبال في طريق تحرير الأمم والشعوب من غفلتها وجهالتها، لم يبال في تطبيق مبادئه أحداً إذ أدرك أنه لا يمكن لها أن تتقدم إلا بالعلم والحضارة وإيقاظ العقول والنظر الحر ومحاربة الأوهام والظنون وما أكثر ما دعا كتاب الله إلى ذلك:

﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾. (سورة يونس /١٠١)

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ * ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. (سورة الزمر)

كما خاطب المعارضين المتحدِّين بكل عقلانية وتبصر:

﴿هل عندكم من علم فتخرجوه لنا... إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾. (سورة الأنعام /١٤٨)

ثم أعلن قاعدته العامة في حواره لكل معترض:

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. (سورة البقرة)

كما أن الإسلام رفع من مكانة العلم والعلماء إلى مكانة ليس بعدها رتبة:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. (المجادلة)

وقوله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. (سورة فاطر)

كل ذلك كان دافعاً للمسلمين أن يقتحموا ميدان العلوم كلها ويسابقوا فيه الأمم.

دعوة الإسلام إلى العلم بلا حدود:

شرع العرب كما يقول العلامة ـ درابر ـ بعد وفاة نبيهم بست سنوات، شرعوا يطلبون العلم فلم يدعوا فرعاً من فروعه إلا حذقوه وصاروا أئمة فيه، فلم يمض وقت قصير حتى كانت حضارتهم وعلومهم يفد إليها طلاب العالم ينهلون منها ويقتبسون ما أمكنهم، ومن أغرب ما رواه التاريخ أن الإسلام لاعتماده على العقل والنظر والعلم قرر الأصوليون «أن الإيمان التقليدي في العقيدة غير مقبول فلا بد لكل معتقِد من أن يكون لديه الدليل على كل ما يأخذ به بقدر درجته من العلم».

وهذا مبدأ متميِّز في الشريعة لا يوجد نظيره في الأديان والمذاهب حيث رسم خطوطاً عريضة ووضع قواعد ومنهجية بحيث يحفظ العالِم نفسه من الغرور بالعلم أو التعالي على الآخرين لدرجة أن المؤرخ العلامة ـ سيديو ـ يقول في تاريخه:

«لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم وكانوا هم السبب في خروج أوربا من الظلمات إلى النور»[١٤].

وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أن الإسلام عندما دعا إلى العلم لم

---

(١٤) كتاب الإسلام دين الهداية ـ محمد فريد وجدي.

يكن قد وضع حداً له بل حض على طلب مطلق العلم بقوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾

وقول النبي ﷺ: [اطلبوا العلم ولو بالصين].

وهكذا أباح للعقول أن تبحث في كل ميدان وتكشف أغوار كل مجهول حتى أنهم أباحوا تعلم السحر دون العمل به لكشف أباطيل السحرة.. ومن أجل ذلك دأبوا على جمع الكتب وتكوين المكتبات حتى قيل: كان أحد شروط الصلح بين المأمون وبين ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التي كان فيها من الذخائر كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية فأمر بترجمته إلى العربية وسموه المجسطي(١٥) وقد دفعهم إلى كل ذلك كتاب الله تعالى وما أجمل فيه من إشارات إلى العلوم وحقائق الوجود.. فقد تكلم عن الكائنات أصولها وفروعها وقد كانت غازاً أو سديماً ثم كيف كوّن تلك السدم والأفلاك والنيازك، وتكلم عن الشمس ونظامها والأرض ودورانها، وعن خلق الإنسان وتكوينه، والبحار وما فيها والسماء وما حوت والرياح وما حملت، وعن مصير العالم إلى أين ينتهي ...

وقد كان الإسلام في حثه على طلب العلم من سعة الصدر للأراء والمذاهب والمطالبة بالفهم والدليل والاشعار بالتبعية الشخصية ونبذ التقليد ما جعله متميزاً إذ كان الناس إلى عهده صرعى موروثات

قديمـة وتقـاليـد وأوهـام إلى أن جاء فأطلق العقـل من إسـاره وأرسى المعـارف على أسـاس الـواقـع المحسـوس، فما مضت مئتـا عام حتى أصبحوا قادة الحركة العلمية والسياسية في الأرض وكانوا سبباً في حفظ تراث الإنسانية من ثمرات العقول ونتاج الفكر.

فهـذه الحـركـة العلميـة التي أنشؤوها في أحضان الإسلام، ما آتت أكلهـا إلا في ركابه وبعلمائه حتى ألمت بكل المعارف والعلوم وشهد علماء الغـرب بذلـك وافتخـروا بأساليبهم في معالجة تلك العلوم وعبر عن ذلك دابر:

«لقد كان تفوق العرب في العالم ناشئاً من الأسلوب الذي توخوه في بحـوثهم وهـو أسلوب اقتبسـوه من فلاسفـة اليونان فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقـلي لا يؤدي إلى التقـدم وأن الأمـل في الـوقـوف على الحقيقـة يجب أن يكـون معقـوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم الأسلوب التجريبي والأسلوب العملي». إلى أن قال:

«وهذا الأسلوب هو الذي حقق لهم التقدم الباهر في الهندسة وحساب المثلثات ووضع قواعد علم الجبر واستخدام الأرقام الهندية»(١٦).

وقـد كان لهؤلاء العلماء المسلمـين من سعـة الصـدر والمـرونة، وحبهم للعلم ما جعلهم لا يأبهـون لدين العـالم وعقيـدتـه، ومـا كانوا

---

(١٦) كتاب الإسلام دين الهداية ـ محمد فريد وجدي.

يَزِنون قدره إلّا بأعماله . . .

ولما كان الإسلام قد أطلق العقل من عقاله، ولما كان المسلمون سيواجهون مذاهب وآراء تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب لذا احتاط علماء المسلمين فوضعوا قاعدة أصولية:

«إذا خالف حكم العقل نص الكتاب والسنة وجب التأويل على حكم العقل وتأويل ظاهر النص» لهذا لم يصطدم الدين بالعلم فكان في هذه القاعدة السامية مخرج للعلماء للأخذ بالآراء في شتى العلوم والفلسفة غير آثمين يقول محمد فريد وجدي:

«كانت تلك القاعدة من أعظم ما أوجده الإسلام من القواعد المؤسسة لحرية العلم الموطِّدة لدولة العقل».

وهي أدعى للعجب بسمو هذا الدين والتعجب من سبقه العالم كله نحو عشرة قرون بتقدير المنهج العلمي وإطلاق الحرية والنظر والتفكير بغير اعتداد بشيء غير مصلحة العلم والفلسفة خالصين من كل وصاية أو رقابة.

الرد على رينان(١٧):

رغم اعتراف العشرات من كبار علماء الغرب بالمنهج العلمي للعرب وبالعقلية العلمية التي كان لها الأثر البارز في تطبيق المنهج

(١٧) مستشرق فرنسي صرح أن العقلية العربية والإسلامية خيالية خرافية لا علمية.

العلمي التجريبي على الدراسات العلمية . . . وحتى الإنسانية، إلا أن رينان بدافع العصبية لقومه أو نكران جميل المسلمين عليهم راح يتهم العقلية العربية بأنها لا ترضى بالنظرة العلمية، وهذا أغرب ما يوصف به المسلمون بل هو ليدل على عصبية رينان هذا لبني قومه، وجهالته فقد اضطر أن يفرق بين العقلية السامية والآرية ليبرهن على أن العرب لم يسهموا في الثقافة الإنسانية بل أساؤوا إليها. . قال: «فالعرب والمسلمون خاصة قوم بعيدون عن روح العلم ومناهجه وهم أكثر اهتماماً بالجزئيات وأكثر ميلاً إلى الخيال هذا إلى أنهم يتمسكون ببعض القيم الخرافية والغيبية»(١٨).

واتهام رينان للعقلية العربية بأنها عقلية خيالية لا ترضي النظرة العلمية يغاير الواقع وتحمل هذه الفرية في ذاتها الرد عليه مما يجعلنا ندرك أن رينان نفسه لم يكن يدرك أن للخيال دوراً في الجمع بين جزئيات الموضوع وصولاً إلى القانون. بل إن الدكتور محمود قاسم ليرى في كلامه مدحاً في صورة الذم(١٩)، ذلك لأن المنهج العلمي الحديث يقوم أساساً على جمع الملاحظات والتجارب في العلوم الطبيعية ثم يحاول الربط بين هذه الملاحظات والتجارب بفكرة يتخيل الباحث أنها تفسر الوقائع وتلك هي مرحلة الاختراع التي يقوم فيها

---

(١٨) دراسات في الفلسفة الإسلامية ـ د. محمود قاسم.

(١٩) نفس المصدر.

الخيال بالوظيفة الرئيسية ثم يلي ذلك مرحلة التأكد من صدق هذه الفكرة والفرض لتصبح بعد ذلك قانوناً أو حقيقة علمية .

وفي الرد على رينان نقول إن العرب هم الذين وضعوا أصول البحث العلمي ومناهجه الدقيقة والتي تعتمد على عنصرين : عنصر الوقائع والظواهر الجزئية وعنصر الخيال الذي يربط هذه العناصر ليصل إلى القانون وقد طبق العرب هذا المنهج في الدراسات الفقهية والنحوية والتاريخية وحتى في عالم الكلام والتصوف ومنه ملامح عند الغزالي وابن حزم . . .

ويشير الدكتور القاسم هنا كيف اهتدى أحد كبار المتصوفة ـ ابن عربي ـ إلى وظيفة الخيال في الكشف والاختراع وهي التي لم يصل إليها نيوتن وهنري بوانكاريه إلا بعد ذلك بقرون ، هذا مع التنبيه إلى أن ابن عربي هذا عاش في عصر التدهور لا عصر ازدهار الحضارة العربية وهو أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر . .

فأين عربي يرى أن الخيال «حاز درجة الحس والمعنى فلطّف المحسوس وكشف المعنى فكان له الاقتدار التام» وهذا يعني أن الخيال يصعد بنا من الظواهر المحسوسة إلى فكرة عامة نسميها الفرض . فإذا علمنا أن أي منهج علمي يخلو من الفروض ليس منهجاً علمياً في نظر المحدثين أدركنا مغزى كلمة ابن عربي تلك ، واسمع ما يقوله ـ رينيه لوريش ـ أحد أعلام العلوم الطبية في القرن العشرين : «إن قوانين الفكر واحدة ، في كل مكان ولا يستطيع الباحث إنتاج شيء ما إلا إذا

خلع على بحثه جزء من نفسه وليس هذا الجزء إلا الخيال الذي يزيد ثروة العلم ويدعمه». أما ابن عربي فيرى أنه:

«ليس للقدرة الالهية فيما أوجدته أعظم وجوداً من الخيال . . . ».

فنعمة الخيال عند الإنسان هي التي جعلته ينفرد من بين الخلائق بالقدرة على الاختراع الشعوري الذي أدى إلى ما نراه من تقدم علمي وحضاري.

كما أشار ابن عربي إلى تفاوت قوة الخيال عند البشر، ويرى ذلك سبباً في تفاوت إنتاج العلماء . . . وقد عبر عن هذه الفكرة بعد ذلك أحد علماء القرن التاسع عشر. . .

والذي قال «إن الناس ليسوا على حد سواء في القدرة على الابتكار وعلى تخيل العلاقات بين الأشياء التي تبدو مستقلة بعضها عن بعض، لأنه يعتمد على أساسين هما المعرفة السابقة وحدة الذهن وقدرته على الابتكار»[٢٠].

كما أشار الدكتور القاسم إلى ماقرره ـ كود برنار ـ بعد ابن عربي بستة قرون إذ يرى أن الإنسان يبدأ بملاحظة الظواهر الطبيعية ثم يروح لتفسيرها، ولكنه لا يصل إلى هذا التفسير إلا إذا خطرت له فكرة خيالية تقوم على أساس من الحدس.

وعلم النظرة (الخيال) عند ابن عربي هو العلم المفاجىء الذي

---

(٢٠) دراسات في الفلسفة الإسلامية ـ د. محمود قاسم.

يشـرق في الخيـال وهـو نور يهبه الله للإنسان يشرق فيه كضوء الشمس واسمع ما يقوله نيوتن في تعليل كشوفه ومخترعاته «أبحاثي وليدة العمل والتفكـير الـوئيـد فأنـا أجعل موضوع البحث نص عينيّ دائماً ثم أنتظر حتى تبـدو الأشعـة الأولى وتسطـع شيئاً فشيئاً حتى تنقلب ضوء مفعماً كامـلاً»، وهكـذا تجد أن ابن عربي هذا قد اهتـدى إلى أصول المنهج العلمي والـذي التقى معـه من علماء الغـرب من جاؤ وا بعـده بقرون أمثال كلود برنار ونيوتن ولوريش وبوانكاريه . . فكيف يدّعي ـ رينان ـ بعـد كل هذا أن عقليـة العرب خرافية؟ بل أن الدكتور القاسم يذهب أبعد من هذا في نتائجه ليقول: «إذا كان الخيال هو عنصر العبقرية في العلم والفن والأدب والسيـاسـة والحيـاة الـروحيـة، وابن عربي عرف أصوله وأخذها عنه أقطاب علماء الغرب، أفلا يجوز لنا أن نذهب أبعد من ذلك فنفسر عقم المنهج اليوناني الذي اعتز به الغرب ورينان بصفة خاصة بأنه كان خلواً من عنصر الخيال؟»(٢١).

---

(٢١) المرجع نفسه.

الفصل الثالث

«حضارة العرب بين المنصفين والمتعصبين»

الحضـــارة تراث إنســـاني شاركت فيـــه شعـوب الأرض وأخـذ الـلاحق منهم عن الســابق وحاول أن يطور بقدر استطاعته، وقد نمت بوادر هذه الحضارة على ضفتي النيل وفي بلاد الرافدين وعلى شواطىء المتـوسـط والصـين والهند، ثم انتقلت إلى الغرب ونقلها اليونان أقرب منطقـــة أوربيـة إلى الشـرق. . . وقـد كان العـرب حلقـة في سلسلة الحضارة الإنسانية وهي الحلقة الأهم لما لها من آثار تركت بصماتها على حضـارة الغـرب في أيـامنـا هذه. . . ولم يتبـدّ هذا الـدور الذي قام به العـرب إلا بعـد النصف الثـاني من القـرن التـاسـع عشر عام ١٨٥٠ عنـدمـا جمعت المخطـوطـات وراح المستشرقون يدرسون حضارة العالم والعرب خاصة وتبين لكثير من العلماء المنصفين أن العرب كان لهم دور لا ينكـر بل هو من الأهميـة بحيث أن ـ لوبـون ـ عنـدما هزم العرب في معـركـة ربواثية، قرر أن هذه الهزيمة أدت إلى تراجع الحضارة العالمية خمســة قرون إلى الــوراء. . كما صرح نفسه أن العرب لم يكونوا ناقلين للحضارة كما يحلو لبعض المتعصبين أن يصوروهم وإنما كانوا مطوِّرين

ومبتكرين في كل ما نقلوه عن الأمم السابقة وخاصة اليونان الذين كانوا أسوأ وريث لحضارة من كان قبلهم[٢٢].

وإذا كانت الحضارة هي تراث الأمة المادي والمعنوي وما خلفته من علوم وفلسفة وفنـون وآداب ودين . . فإن العرب وما تركوه في هذه الميـادين ـ وعلى ألسنـة المستشـرقين الأعاجم ـ ليبدو صفحة ناصعة في مسيرة الحضارة الإنسانية .

ولكن يحلو للغربيين أن يغمطوا العرب هذا الدور الكبير الذي قاموا به عبر التاريخ فتراهم يدّعون أن حضارة الإغريق نشأت هكذا من العـدم ولم تتأثـر بغـيرهـا من الحضـارات ولـذا أسمـوهـا بالمعجزة الإغـريقيـة ليعلنـوا أن حضـارتهم اليـوم أخذت من اليونان ولم تمر عبر العرب وأن المتساهل من هؤلاء المستشرقين جعل العرب ـ سعاة بريد ـ في نقلهم للحضـارة . وتنقل المستشرقة الألمانية سيغريد «بأنهم قالوا إن العـرب قد نقلوا كنـوز القـدامى إلى الغـرب» وتعلّق على هذه العبارة التي يحاولون فيها ادعاء وكذباً التفريط بما قد أسداه العرب لأوربا وترى أنهم ما زادوا أن جعلوا العـرب ـ كسـاعي بريـد ـ وذلـك للتقليـل من قيمتهم وطمس كثـير من الحقـائق[٢٣]، فتـاريـخ العـالم عنـد هؤلاء الغربيين وتاريخ الآداب والعلوم والفنون يبدأ بمصر القديمة وبابل ثم توسع وتشعّب ببلاد الإغريق ماراً ببيزنطة ومنتقلاً عبر القرون الوسطى

(٢٢) كتب انصفت حضارتنا ـ فريد جحا .

(٢٣) شمس العرب تسطع على الغرب .

المسيحية لينتهي ، بل إن البعض منهم تجاوز ذلك كله ليجعل الاغريق هم أصحـاب أقـدم حضـارة وأن حضـارة الغـرب اليـوم منقولة عنهم متجـاوزين بذلـك أي دور لشعوب الشرق وللعرب خاصة في الحضارة الإنسانية وقد ردّ ساراتون هذه الفرية بقوله :

«إن من سذاجـة الأطـفـال الافـتراض أن العلم بدأ في بلاد اليونان ، فالمعجزة الإغريقية سبقتها آلاف الجهود العلمية في بلاد مصر وبـلاد مابـين الرافدين والعلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً . . بل هاهـو ـ ويـل ديـورانت ـ صاحب قصـة الحضارة يؤكد هذا المعنى بقـولـه : «إن قصتنـا تبـدأ بالشرق لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنية معروفة لنا ، ولأن تلك المدنية كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والـرومـانيـة وسيدهشنا أن نعلم كم من مخترع من ألزم مخترعاتنا وكم نظام من نظمنا الاقتصادية والسياسية وما لدينا من علوم وآداب وما لنا من فلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق»(٢٤) .

بل هو ليخـالف هؤلاء المستشرقين المتعصبين حتى في آرائهم : «والآريـون لم يشيـدوا صرح الحضـارة بل أخذوها من مصر وبابل ، إن اليونانيين لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه لنا أكثر مما ابتدعوه ، لقد كانـوا الـوارث المـدلـل المتـلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها آلاف السنين وجاءت إلى مدائنهم مع صناعتي التجارة والحرب(٢٥) .

---

(٢٤) كتب انصفت حضارتنا ـ فريد جحا .

(٢٥) نفس المصدر .

قنوات الحضارة:

ويمضي العـرب منـذ السنـة الأخـيرة من حياة الرسول ﷺ في فتوحات تحرير الشعوب والتي امتدت حوالي القرن وحّدت خلالها دولة العـرب من إسبـانيـا غربـاً إلى حدود الصين شرقاً ومن جبال طوروس شمالا إلى أواسـط افـريقيـا وبحـر العـرب جنوباً، وانتقلوا يغرفون من حضارات الشعوب التي اتصلوا بها ويبتكرون خلال فترة طالت سبعة قرون من القـرن الثـامن إلى القـرن الخـامس عشـر ميـلادي، خلّفوا خلال تلك الفـترة آثـاراً تنـاولت مختلف منـاحي النشاط الإنساني من علوم وآداب وطب وفلسفة وتاريخ وجغرافيا(٢٦).

عاش العـرب وخلال قرنين يتصلون بالتراث اليوناني والروماني وبالتراث الهندي والفارسي، نقلوا وترجموا وعرّبوا حتى إذا ما استوعبوا ما نقلوا انكبوا ينتجون ويبدعون ويضيفون مبتكراتهم حتى عرف العالم الحضارة العربية وهي الحضارة التي كانت ثمرة تلاقح الحضارة العربية بالحضـارات السابقة والتي صبغت بصبغة العروبة والإسلام وإن أنكر ذلك من أنكر.

وقـد أجمـع المؤرخـون(٢٧) على أن الحـركـة الفكـريـة والنهضة العلمية دخلتا أوروبا حوالي القرن الثاني عشر عن طريقين:

---

(٢٦) عبقرية الحضارة العربية ـ ترجمة عبد الكريم محفوض.

(٢٧) الإسلام دين الفطرة والحرية ـ الشيخ عبد العزيز جاويش.

١ ـ الاحتكاك الذي ظل نحو قرنين مستمراً بين أمم أوربا والشرق الإسلامي خلال الحروب الصليبية.

٢ ـ طريق المعاهد الدينيّة العلمية التي أقامها العرب في الأندلس ونابولي وجزيرة صقلية.

والمحققون من المؤرخين يرون أن من بدىء بهم تاريخ النهضة العلمية في أوربا كروجر بيكون وغيره كانوا من الواقفين على اللغة العربية واللاتينية التي كانت تنقل إليها علوم العرب ومباحثهم في كل فن، وإذا انتحل هؤلاء أوعزي إليهم بعض الابتكارات فإن سبب ذلك ما تعمدوه غالباً من إغفال المصادر التي أخذوا عنها حتى لقد رجحوا أن روجر بيكون الراهب الانكليزي الذي يعزو إليه الفرنجة ابتكار العدسات والنظارات إنما أخذ ذلك عن الحسن بن الهيثم صاحب المباحث في الطبيعيات ولا سيما الضوء والبصريات(٢٨).

وفي هذا يقول آرنولد توينبي المؤرخ البريطاني المنصف: «أصبحت فتوحات الصليبيين الموقوتة في سوريا وفتوحاتهم الدائمة في صقلية والأندلس على حساب دار الإسلام محطات إرسال متعددة أمكن عن طريقها نقل كنوز عالم الشرق المتحضر إلى العالم المسيحي الغربي إبان القرون الوسطى»(٢٩)، بل هو أشار إلى روح التسامح والجو النظيف القائم على التسامح الديني، والتطلع الفكري الذي

---

(٢٨) الإسلام دين الفطرة والحرية ـ عبد العزيز جاويش.

(٢٩) حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ ـ فؤاد محمد الشبل.

أسر فاتحي بالرمو وطليطلة وأضاف أن المجتمع الإسلامي لم يكن مجرد ناقل لهذه الأعمال التي وصلت للدارسين الغربيين في القرن ١٢ م، وإنما انطلقوا يبتكرون علماً أصيلاً من عندياتهم، ومن هذه المبادىء تلقى مسيحيو القرون الوسطى في الغرب من معاصريهم من علماء المسلمين نتائج البحث في العلوم والفنون والآداب . . .

وها هو المؤرخ الكبير «سيديّو» في تاريخه يقول: «لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم وكانوا هم السبب في خروج أوربا من الظلمات إلى النور»[٣٠].

ولو أن الغربيين وقفوا من العقل الإنساني موقف أهل القرآن لما تأخرت نهضتهم إلى وقت متأخر في الوقت الذي فتحت أمامهم كنوز علوم العرب والمسلمين عن طريق تلك القنوات الكثيرة، ولكن كان لسلطان رجال الدين واسترقاقهم لعقول المسيحيين أثر كبير في ذلك التراجع . . . وهكذا ومنذ القرن العاشر بدأ أول احتكاك أوربا بالحضارة العربية حين بدأت تهتم بالكتب العلمية والطبيعية والفلسفية وزاد الاحتكاك بالحروب الصليبية والتي كانت نتائجها العلمية لهم كبيرة إذ نقلوا وسرقوا كنوز العرب العلمية، إلى جانب مركز آخر للنقل في الأندلس بعد أن غدت طليطلة وغيرها من المدن موارد لطلاب العلم والمعرفة.

---

(٣٠) الإسلام دين الهداية ـ محمد فريد وجدي.

ومما زاد هذا الاتصال حدة ونشاطاً أن عمل عليه بعض ملوك أوربا من مثل فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا (١١٩٤ ـ ١٢٥٠) م وألفونس العاشر ملك قشتالة (١١٥٢ ـ ١٢٨٤) وحرصوا على ترجمة الكتب التي تحوي نتاج العقل العربي وأسسوا مراكز ثقافية استقدموا لها أساتذة عرب[٣١].

وقد كثر النقل عن العرب إلى اللاتينية في مواد العلوم الطبيعية والفلسفة ثم أخذت أوربا تعنى باللغة العربية مدفوعة بدوافع دينية وسياسية وتجارية ورافق ذلك في إيطاليا بدء من القرن الخامس عشر ميلادي ازدهار التجارة في مدنها والبدء بحركة التبشير إلى أن ظهرت حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر. . .

ونقل سيديّو في تاريخه العام عن همبولد[٣٢] بأن العرب «كانوا مستعدين بما يقضي بالعجب ليمثلوا دور الوسيط بين الأمم القاطنة فيما بين نهر الفرات ونهر الوادي الكبير، والعرب ـ على عكس بني إسرائيل ذوي التعصب ـ كانوا راغبين في مصاهرة الأمم المغلوبة من غير جحود لخلقهم القومي»، وقد اتفق للعرب في العلوم الطبيعية والرياضة والفلك مالم يهيأ لغيرهم إذ رأى سيديّو وجوب عد العرب المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية بمعناها الحديث. وهكذا يتجلى أثر العرب في جميع فروع الحضارة الأوربية وشهدت علومهم ومعارفهم

(٣١) الإسلام دين الفطرة ـ جاويش.

(٣٢) كتب انصفت حضارتنا ـ فريد جحا.

على ما كان لهم من النشاط العجيب وبما كان لهم من أثر في أوربا النصرانية وكيف حملوا تلك العلوم ونقلوها إلى أبناء العالم بمعزل عن الجنس والدين واللون بكل حرية وتسامح واحترام لعقل الإنسان وتفكيره مما حدا بالمستعرب الإسباني بالنثيا إلى القول: «إن قيام التأليف العلمي في أوربا في الطب والرياضيات مرجعه إلى العرب».

المدنية والرفاهية في حضارة العرب:

سر في براح الأرض وانظر ثمة ما تفخر به العرب في طول البلاد وعرضها ففي كل رابية لهم أثر ينبىء عن حضارة كانت لهم، وعلى صفحة الكون بصمات علمائهم وحتى في لغة هؤلاء القوم مئات الكلمات التي عرّبوها عن أجدادنا يوم اتصلوا بحضارتنا عبر قنوات كثيرة فإن اعترف بعضهم بذلك أمثال سيديّو ولوسيان لوركير الفرنسي، وبريس دافين، وماكس برشم والمؤرخ البريطاني بتلر، ود. غوستاف لوبون والاسباني بلاثيوس.. لئن اعترفوا بحضارة العرب في كتب وضعوها فذلك منتهى العدل والإنصاف... وإن رفض وأنكر البعض ذلك فما رفضهم بقاطع رأياً أننا لم يكن لنا حضارة لأن الشواهد الناطقة بذلك أكثر من أن تحصى وأكبر من أن يحيط بها عالم، وما إنكار هؤلاء إلا من تعصبهم الشديد وتعاميهم عن الحق وانخداعهم ببريق حضارة الآيدز والصاروخ، حضارة لم تنشر في العالم رحمة ولا سلاماً ولم تدع البشر فوق هذا الكوكب إلا وحوشاً يفتك

بعضهم ببعض وشتان بين هذه الحضارة وحضارة العرب وما حققته في المجتمع الإنساني عامة.

أجِلْ الطرف بعيداً حيث نشرت حضارة العرب ظلالها وعلومها لتشهد بنفسك الدليل عليها وباعتراف أساتذة الغرب أنفسهم وقد جاء الدليل هذه المرة من المستشرقة الألمانية المنصفة سيغريد هونكة فقد كانت منصفة للعرب وغيرهم من الأمم التي شاركت في حضارة العالم ولم تأبه لرد أبناء جنسها عليها وعتابهم القاسي لها فقد أرادت أن تقول الحقيقة كما عرفتها غير آبهة بكل التحديات فأنت معها في كتابها ـ شمس العرب تسطع على الغرب ـ تعبر في دروب ومداخل قل من يعرّج عليها من علمائنا بهذه الصراحة والوضوح وعرفان الجميل، مما ينبئك أن في بعض الأمم المتحضرة اليوم من لم يخدع بما فعله العرب ونقلوه من حضارة إلى الغرب بل هي سخرت من أولئك الذين رأوا أن العرب كانوا ناقلي حضارة أي سعاة بريد وأثبتت بكتابها ذلك رد هذه المقولة ودحض ذلك الافتراء الكاذب...

وإذا كانت الحضارة الإنسانية ميراث أممي إنساني يستقي اللاحق من السابق علومه ويستفيد الآخر من الأول ويبني على أثره ويطور ويبتكر، فإن التاريخ وحده هو الذي يعرف الحقيقة فلا يغمط أحداً حقه فإن أبى ذلك أحياناً، فالمستشرقة الألمانية تقول في كتابها العظيم: تلك آثارهم تدل عليهم فاسألوا بعدهم عن الآثار...

وأنت تقلب صفحات التاريخ لا تعدم أن تسمع أخبار تجارة

العـرب منـذ القرن التاسع وسفنهم التي تجوب عرض البحار والتي كان ينتظرها الغرب بإعجاب ودهشة لما تحمله من توابل ونارنج وبرقوق وأرز وبن وسكـر وليمـون وكمثـرى، ومـا كان فيهـا من مواد الـرفـاهية من ملابس وأقمشة كالقطن والحرير والساتان والقماش الشفاف والدمقس الفـاخـر ذي الألـوان المتعـددة مما أوردتـه وذكـرته المستشرقة الألمانية مما يعطيك صورة عن حياة التنعم والغنى والثراء وبحبوحة العيش وجماله التي كان عليهـا العـرب، والتي كان الغـرب يتطلع إليهـا بشغف بين الحـين والحـين، فقد كانت سفن العرب تغزو أوربا عبر صقلية وجنوا والبنـدقيـة في إيطـاليـا فتملأ الأسـواق الأوربيـة بالبضائع العربية من التوابل والنسيج والستائر العربية . . تقول سيغريد هوندكة(٣٣) :

«وبانتشار الإسلام أصبح البحر حداً فاصلاً بين عالمين فجاءت النهضـة لتمـد البحر من جديد بجسر مكن بلاد الشرق من نقل كنوزه وغزو بلاد الغرب الجائعة» .

وقد بلغ من إنصافها العرب أن عنْونت الفصل الثاني من كتابها بـ «أوربا الجائعة في ظل التجارة العالمية» . واستمع إليها تصف التاجر الأوربي وطوافه ببلاد العرب والإسلام ثم عجبه الشديد مما يرى «كان التـاجـر بدوره من البنـدقيـة أوجنـوا يمضي عادة مدة لا تقل عن ستة شهور يعيش خلالها في المحيط العربي ويتنفس في أجواء حضارة العالم

---

(٣٣) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هوندكة .

العـربي السـاحـرة، وإذا عاد شحن معـه من قطن سوريـا ومن زجاج صور وفخـارها والتوابل والقرفة والكافور والبخور وخشب الصندل من مراكز التجارة المصرية» بل إنها لتصرح بأن «أساس كل رخاء سابق في بلاد الغـرب قد نبت في سلال التـوابـل العـربيـة ونهامعها» وبانطفائها انطفأت التجارة الداخلية فترة فأفلس التاجر (الأوربي) وذاب الذهب المتداول. . وغاض الغرب في أعماق الهاوية . . .

وقد بلغ من حب بعض بلدان الغرب لصداقة العرب واستقبال سفنهـا التجـاريـة المحملة أنهم لم يبالوا في تسليحهم بسفن حربية ضد الحملات الصليبية مقابل استمرار تلك التجارة تقول سيغريد هونكة : «فمـدينـة جنـوا بلغت من صداقتهـا المشينة مع المسلمين حين راحت تلبي سلطـــان مراكش فتسلح له ١٨ سفينـــة حربيـة لمسـاعـدتـه ضد الصليبيـين القـراصنـة»(٣٤) وهكـذا مُزِّق الحصـار الذي فرضته أوروبا المسيحيـة ضد الإسـلام مرات، فبـواسطة الجسور التي أقامتها السفن الإيطـالية وبواسطة الحجاج والتجار والسياح أثر العرب بغناهم المادي في كل مجالات الحياة اليومية لأوربا.

فالمـدنيـة والـرفـاهية التي نقلها العرب واحتكاكهم بالغرب، لم تكن لتوصف بسبب تسامح المسلمين وعدم تفرقتهم بين جنس وجنس وعـدم وضـع حدود لغناهم بل ورفاهيتهم . . . كل ذلك جعل الغرب

(٣٤) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هوندكة.

يتطلع بعين المحب إلى هذه الحضارة ذات المدنية والثراء الواسع والحمامات الساخنة والتوابل العجيبة والأطعمة اللذيذة بحيث رأوا عالماً جديداً ما كانوا ليحلموا به في أوربا التي حاصرتها الكنيسة فاعتبرت الاستحمام وتعرية الجسم معصية لله، فحرموا على واحدهم أن يستحم أكثر من مرة أو مرتين.

نقل الطرطوشي أثناء تجواله في بلاد الفرنجة ما رآه مما اقشعر له بدنه من أهل الغرب حيث لم يجد أكثر قذارة منهم فهم «لا يستحمون إلا مرة أو مرتين في النسة وبالماء البارد»، كل هذا في الوقت الذي كان في بغداد وحدها في القرن العاشر آلاف الحمامات الساخنة والتي يجد فيها المرء الراحة التامة والخدمة الرائعة ويرى من مظاهر الحضارة مالم يخطر له على بال، ولا ريب أن هؤلاء العرب الذين كانوا على هذه الدرجة من المدنية والنظافة والغنى والثراء والتجارة التي تعبر البحار لم يكونوا ليبلغوا ذلك لو لم تكن لهم حضارة قد قطعت خطاً كبيرة في المدنية والرقي...

دواعي الحضارة وأخلاق العرب:

أدى الفتح العربي للعالم القديم خلال القرنين السابع والثامن إلى نتيجتين هامتين أولاهما إنشاء دولة جديدة مترامية الأطراف في حوض المتوسط وهكذا سيطر العرب وخلال قرن من الزمن على منطقة

تمتد من الصين شرقاً إلى إسبانيا غرباً ومن جبال طوروس شمالاً إلى بلاد العرب جنوباً في دولة تضاهي امبراطورية روما في أوجها، وقد تحولت هذه الدولة إلى مملكة سياسية تشتمل على دول منفصلة ولكن كانت لها هوية تجمعها هي الإسلام والعقيدة التي ألغت الفوارق العرقية والقبلية، وضمن هذا الإطار الإسلامي العريض سمح لكل الأجناس والألوان أن تعلو وتفكر وتخترع وتبدي فكرها وحضارتها إذ صار العلم والمعرفة والتقوى مقياس شرف الإنسان وقدره، فخلقوا حضارة عالمية كما يقول بادو(٣٥) ويشدد بادو على كلمة - خلقوا حضارة - ولم يفرضوا حضارة عن طريق الغزو. . . «لقد برزت تلك الحضارة إلى الوجود ضمن الدولة الجديدة وأخذت هوية وطابع النظام الجديد الذي نجم عن فتوحات الإسلام، لدى انتشاره بين الشعوب الغريبة واستطاعوا صهر كل مقومات الشعوب وتقاليدها من أدب قديم وفكر هيليني ومؤسسات بيزنطية وقانون روماني ودراسات من فارس في بوتقة واحدة هي بوتقة الإسلام وصنعوا منه حضارة طوَّروا وأبدعوا فيها حتى سحروا أعين الناس في أوربا» ويقول بادو «ولم تكن حضارتهم صورة مركبة ببساطة من نتف وقطع حضارات مختلفة وإنما كانت نمطاً جديداً متميزاً صهر كل تلك الألوان والحضارات والثقافات بروح جديدة، وعبّر عن نظام اجتماعي جديد.

---

(٣٥) عبقرية الحضارة العربية (مقال لـ جون س. بادو) دور العرب في الحضارة الإنسانية عدد من المؤلفين - ترجمة عبد الكريم محفوض.

وقد نشات تلك الحضارة بسبب حب العرب والمسلمين للعلم والمعرفة ونتيجة التسامح الديني الذي تحلى به المسلمون مع أبناء البلدان المفتوحة، وبسبب من عدم التدخل في الشؤون الداخلية لتلك البلدان المفتوحة، ولم يكن من أهدافهم الحكم والاستيلاء على الشعوب وإنما كان الهدف هو نشر رسالة السماء وما عدا ذلك فكل بلد يحكم نفسه بأبنائه حيث ظل موظفو كل بلد في أمكنتهم، وسبب رابع لتلك الحضارة هو البذل والسخاء من العرب والمسلمين في سبيل البحث عن المعارف والمخطوطات وقد وصل المأمون في ذلك إلى أقصى غاية في تكريم العلم والعلماء وترجمة علوم الأمم السابقة.

ويروح - بادو - ليقارن بين حضارة العرب وأثرها في العالم وبين حضارة المغول مثلاً وما تركته غزواتهم من نتائج مختلفة لم تنبثق عنها أية حضارة إذ عندما انحسر مدهم لم يتركوا وراءهم إلا التدمير والتخريب(٣٦)، بينما راح العرب يوطدون بعقيدتهم نظاماً اجتماعياً وحضارياً وثقافياً جديداً في امبراطوريتهم الخالدة والتي تجدد نفسها بنفسها نظراً للترابط الوثيق بين شعوبها على اختلاف لغاتهم ونظراً لدور اللغة العربية التي راحت تكتب بها كل الشعوب وصار لها من القوة والغلبة ما جعل الغرب ينقل علومها وحضارة أبنائها إلى اللاتينية.

---

(٣٦) عبقرية الحضارة العربية - ترجمة عبد الكريم محفوض.

ومن أعظم أخـلاق هؤلاء العـرب الفـاتحـين أنهم استجـابـوا لحضارة الشعوب والبلدان التي افتتحوها فلما تراخت الفتوحات جلسوا كالتلاميذ عند أقدام الشعوب التي حرروها ليستفيدوا من علومهم وكم برهنوا على أنهم طلاب مولعون باكتساب العلم كما أشار فيليب حتي: «أخلاق رفيعة عالية تخلّق بها هؤلاء العرب وهم يتتلمذون على علماء كانـوا قبـل قليل من ألد أعدائهم، نفوسٌ تهوى وتعشق الرقي والمدنية وتتطلع إلى مزيـد من العلوم لأجـل الناس جميعاً ويكفي أن تعرف أن معظم أطبـاء الخلفـاء العبـاسيـين كانوا من النصارى وأن ثابت بن قرة الحراني الذي قدمه محمد بن موسى شاكر إلى الخليفة المعتضد كان من الصابئة(٣٧).

وهكـذا بدأت حركـة تبادل الثقافات وراحت الشعوب المغلوبة تشارك وتتمثل ثقافات بعضها بعضاً ويتلاقى الجميع في عاصمة الدولة مما خلق تلك الحضارة الرائعة بل أن هذا الاحتكاك بالعرب أدى بكثير من هؤلاء إلى اعتنـاق الإسـلام وإلى تزاوج منهم على نطاق واسع. وهكذا أدى ذلك التمازج إلى خلق هذه الحضارة ذات الهوية الأصلية، كان العـرب أصـلاً لها وكان الإسلام هو الذي صبغها بالصبغة العالمية فكـراً وديـنـاً وثقـافـة يقول بادو: «إن الاستيلاء على ما خلفه الإغريق والبيـزنطيـين والسريان والفرس من أجل بناء حضارتهم الجديدة قد تم

---

(٣٧) المصدر نفسه.

كل ذلك تحت الرقابة الإسلامية وكان المقصود منه خدمة الأغراض الإسلامية(٣٨).

وقـد كان أبـرز تلك الأغـراض تحرير الإنسان من عبودية البشر وانتشاله من براثن الجهل ونشر روح المعارف الحقة وخلق حضارة تلائم الجنس البشـــري تتفــاعـل فيهـا كل شعـوب الأرض على اختـلاف أجنـاسهـا وألوانها وعقائدها، ويلتقي هؤلاء جميعاً على مبادىء سامية خالـدة وأخـلاق نبيلة تكـرم الإنسـان وتحـترمـه وتعطي لكل ذي حق حقه.. وكان من نتائج ذلك أن سارعت الشعوب تتخلى عن عقائدها وتـرغب في عقيـدة الإسلام وتبني مجتمعاً إسلامياً جديداً عقيدته الثابتة الإسـلام وسـداه ولحمتـه علوم ومعـارف وحضـارة عظيمـة نقلت إلى شعوب الأرض بلا منٍّ ولا استئثار وتلك هي الرسالة الخالدة والحضارة الإنسانية الكريمة.

مظاهر الحضارة في العلوم:

بعـد معـركـة طالاس التي انتصـر فيهـا الجيش الإسلامي سنة ٧٥١ م انفتحت أبواب آسيا الوسطى أمام المسلمين والقصة تقول أن أسرى صينيين قد أدخلوا صناعة الورق إلى سمرقند التي كانت محاطة

---

(٣٨) المصدر نفسه.

بحقول شاسعة من مزارع الكتان، وأن أخاً لجعفر البرمكي أنشأ أول مصنع للورق في بغداد سنة ٧٩٤ م وكان هو الوالي على سمرقند من قبل العباسيين[٣٩].

وقد أدرك المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) قيمة هذه المادة الجديدة للكتابة في وزاراته ومجامعه العلمية، ومن عرب صقلية والأندلس تعرفت بلاد الغرب على هذه المادة التي هي إحدى دعائم الثقافة[٤٠].

وهكذا انتشر استعمال الورق خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادي في جميع بلدان العالم الإسلامي، في سوريا وصقلية، وحتى في مصر والتي ستتخلى عن استعمال ورق البردي، وننظر فإذا الوثائق الغربية الأولى المكتوبة على الورق والمحفوظة يرجع تاريخها إلى القرن ١٢ م وهذا الورق لم يكن إلا مستورداً ومنتجاً في مصانع الأندلس وصقلية وبيزنطة نفسها كانت تستورد الورق من سوريا أومصر[٤١] كان لانتشار صناعة الورق أثر عظيم في توسع مجالات الثقافة وانتشار العلوم والمعارف مما كان دعماً كبيراً للحضارة العربية أعطاها مدى بعيداً عملت فيه على ترجمة الكتب والتأليف والنشر. . .

---

(٣٩) كتاب الإسلام في مجده الأول ـ لموريس لومبار ـ ترجمة اسماعيل العربي ـ الجزائر.

(٤٠) شمس العرب تسطع على الغرب ـ سيغريد هوندكة. منشورات المكتب التجاري ـ بيروت ١٩٦٤ الطبعة الأولى.

(٤١) الإسلام في مجده الأول ـ موريس لومبار. ترجمة اسماعيل العربي ـ الجزائر ١٩٨٤ الطبعة الأولى.

ولقـد عجب أحـد أبـاطـرة بيـزنطـة عندما رأى ورود حق شراء مخطـوطـات إغريقية بين الشروط التي فرضها بربري منتصر، كان هذا البربري الذي يهفو إلى العلم قائداً كبيراً، لقد حصل الخلفاء العرب بهذا الشكـل على الكتب الإغـريقيـة التي تعـالج العلوم والرياضيات والطب، ولم يكتفوا بالمؤلفات الإغريقية بل أن المنصور عام ٧٣٣م من أمر بترجمة مؤلفات فلكية هندية(٤٢).

وفي عام ٨٣٠م باشـر العـرب بعمليـة الترجمة الضخمة وكانت إلى ذلك الوقت تقوم بمبادرات فردية ونهضت الترجمة على يد الخليفة المأمـون والـذي أمر بإنشاء دار الحكمة ـ تحت إشراف حنين بن إسحق أكبر مترجمي الكتب في هذا العصر. . .

وسأعرض الجوانب من مظاهر حضارة العرب خاصة في ميدان الفلك والطب.

ففي مجال الفلك فقـد وصـل موسى بن شاكـر إلى قصر المأمون وهو الذي صرف عمره كله في الفلك والرياضيات، كما كان لثابت بن قره والبتّالي الذائع الصيت في القرون الوسطى فضل كبير في ميدان الفلك.

وقـد أنشأ المأمـون مرصـدين في دمشق وبغداد، كما كان لأولاد موسى الثـلاثـة فضل كبير في الفلك ورصد النجوم والهندسة حتى قال البيروني فيهم بعد مرور ١٥٠ سنة: «إني أرى أنه بوسع المرء أن يعتمد

(٤٢) كتب انصفت حضارتنا ـ فريد جحا.

على ما قام به أبنـاء موسى بن شاكـر من أبحـاث ومـلاحظـات كانـوا الوحيدين في عصرهم والذين برعوا في أبحاثهم الفلكية»(٤٣)

وقـد سعى محمـد بن موسى وأخـوه أحمـد إلى إقامة مرصد آخر على جسـر الفـرات واستخـدمـوا آلات دقيقـة جداً وحسـاسـة تدفـع بالإعجـاب والـدهشة فعندما زار الطبيب ابن ريان الطبري مرصدهما في القصـر قال وقـد أخـذه العجب «في مرصـد سامـراء رأيت آلة بناها الأخـوان محمـد وأحمـد ابنا موسى وهي ذات شكل دائري تحمل صور النجـوم . . . وتـديـرهـا قوة مائيـة وكـان كلما غاب نجم في قبـة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها من الآلة وإذا ماظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأقصى من الآلة»(٤٤).

فأي تقـدم ورقي هذا الـذي كان عليه هؤلاء والغرب غارق في عصور الظلمات.

وقـد قام هؤلاء الأبنـاء الثـلاثـة بإيفـاد الـرسـل وعلى نفقتهم الخـاصـة إلى الامـبراطـوريـة البيزنطية بحثاً عن المخطوطات الفلكية والرياضية والطبية وكانوا يدفعون الأموال الطائلة لشراء الآثار اليونانية وحملهـا إلى الـدار التي قدّمهـا إليهم المتـوكـل على مقـربـة من قصره بسـامـراء حيث كان يعمل فريق من المترجمين فيها تماماً مثلما كان الأمر

(٤٣) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هوندكة.

(٤٤) نفس المصدر.

زمن المأمون[٤٥].

على أن هؤلاء العلماء كانوا يرون تعلم تلك العلوم واجباً دينياً ووطنياً وإنسانياً يحملهم على ذلك آيات الكتاب المقدس التي تدعو إلى طلب العلم والاعتراف منه ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ والتي تدعوإلى النظر في ملكوت السموات والأرض أو دراسة النبات والحيوان والحياة على الأرض، ونسمع هنا كلمة رائعة لكبار الفلكيين البتّاني: «إن علم النجوم هو علم يتوجب على كل امرىء أن يعلمه كما يجب على المؤمن أن يلم بأمور الدين وقوانينه لأن علم الفلك يوصل إلى برهان وجود الله وإلى معرفة عظمته الهائلة وحكمته السامية وكمال خلقه[٤٦].

أما في ميدان الطب فقد كان لهم الفضل الأكبر على الإنسانية في تخفيف آلامها ومداواة أمراضها ويكفي فخراً ما ذكرته المستشرقة الألمانية سيغريد هونكة بأنه وقبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم لا تحتوي إلا على مؤلف واحد وهذا المؤلف كان لعربي كبير هو أبو بكر الرازي».

ويقول المستعرب ريسلر «شغل العرب المكان الأول في الطب وبقوا سادة العالم فيه أكثر من خمسة قرون» كما أجمع جميع رحالة العصور الوسطى عن إعجابهم بمؤسسات الاستشفاء الموجودة في

(٤٥) نفس المصدر.

(٤٦) نفس المصدر.

الشرق. وها هو كتاب ابن سينا ـ القانون في الطب ـ يظل يدرس قروناً عديدة في جامعات الغرب يقول د سامي . ك حمارنة:

«القانون في الطب بمثابة مخطوط ذي مليون كلمة يوجز المعارف الطبيـة إلى أيـام الكـاتب. . . ولقـد تقبـل العـالم الطبي الإسـلامي القانون كمرجع وحيد حتى القرن التاسع عشر كما استخدمته الحضارة الغربية لمدة تزيد عن خمسمئة عام»(٤٧).

وفي مجال الأمانة العلمية واحترام شرف المهنة يقول د. حمارنة:

«عرض الخليفة أن يكافىء حنيناً (بن اسماعيل العبادي) مكافأة سخية إن هو أحضر له سماً يسمح للخليفة بدسه خلسة لأحد خصومه للإجهـاز عليـه. فأجابه حنين: لقد تعلمت يا مولاي تركيب العقاقير المفيدة فقط وإني على ثقة بأن هذا هو كل ما يطلبه مني أمير المؤمنين، وإذا أرادني أن أحـضـر له السمـوم فما عليـه إلا أن يتلطف ويأذن لي بالـزمن المطلوب للذهـاب وتعلمه أيضاً». فاحتج الخليفة قائلاً بأنه في حاجـة للسم حالاً. ولكن حنينـاً كان كلما زاد الخليفة من ضغطه عليه زاد بدوره إصراراً على عدم خيانة ضميره وأوضح للخليفة بأن الطبيب قد أقسم على عدم تقديم الدواء المؤذي أو المميت، وأن شرف المهنة يفـرض على ممتهني الطب أن يفعلوا جل ما يستطيعـون لمسـاعـدة مرضاهم وليس لإيذائهم، وصرح حنين حتى وهو في غياهب السجن

---

(٤٧) عبقرية الحضارة العربية (عدد من المؤلفين) ترجمة عبد الكريم محفوض.

وعرضة للإعدام جزاء على إحجامه : «إنني راغب بالموت ومطمئن إلي أن الله سوف يجزيني على براءتي يوم الحساب» وأخيراً أفرج عنه المتوكل وأوضح له أنه كان يختبر شرف حنين واستقامته ثم رفع من مقام حنين وأجزل له العطاء(٤٨).

وإذا كان هؤلاء الأطباء قد ترجموا كتب اليونان وأطباءهم وعرفوا جالينوس وأبقراط أبا الطب فإنهم لم يكونوا ينقلون ما تعلموه نقلاً كما هو بل كانوا لا يعتمدون من هذه العلوم إلا كل ما وافق التجربة العملية المنظورة ولهذا مع احترامهم لأطباء الأمم الأخرى فإن ذلك لم يمنعهم من إبداء دهشتهم من الخلاف والتباين الواضح بين ما قرؤوه وما جربوه ورأوه عملياً، فقد نقلت سيغريد هونكة عن طبيب كان من أصفياء صلاح الدين قوله : «قسماً بجالينوس وباحترامه العظيم فإن ما نراه بأعيننا أصدق بكثير مما نقرؤه».

وهذا ما صرحت به نفس الكاتبة في كتابها الموسوعي إذ ذكرت :

«لقد امتازت كتب العرب على أنواعها المختلفة من كتب مختصرة وموسوعات ضخمة بأنها جمعت بين دفتيها بكل معارف العصور السابقة والعصور الحاضرة منظمة كأحسن ما يكون التنظيم، ومتسلسلة كأحسن ما يكون التسلسل ومشروحة في تفصيل جعل منها ثمرة سائغة في متناول الجميع . لقد امتازت هذه الكتب بروح علمي

---

(٤٨) نفس المصدر السابق .

أصيـل وعـبّرت عن موهبـة منهجية نظامية رائعة وعبقرية خلاقة، هذه هي حضـارة العـرب وإن جحـدهـا الجاحدون وأنكروا فضلها تعصباً ذميـاً منهم(٤٩) أو تجاهـلاً لأبنـائهـا أو حقداً أعمى، هذه هي حضارتنا بكل أخلاقها ومثلها فهي وإن احتلت فعلاً جزء من أوربا في الأندلس فهي لم تقض على المسيحية التي يزعمون أن شارل مارتل قد حماها في معـركـة بواتيـه، ولم يقضـوا على المـدنيـة الغربية التي لم يكن لها وجود يومئـذ، لقـد حولـوا الأندلس خلال مئتي عام حكموها من بلد جدب فقـير إلى بلد عظيم مثقف يحترم العلم والفن والأدب، قدّم لأوربـا سبـل الحضـارة وقادها في طريق النور. . وأكبر دليل على أن الإسلام هو سبب حضـارة الغـرب اليـوم هو أن الغـرب بقي في تأخـره ثقـافيـاً واقتصـاديـاً طوال الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام ولم يواجهه، ولم يبدأ ازدهاره إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجارياً، واستيقـظ الفكـر الأوربي على قدوم العلوم والآداب والفنـون العربية من سباته الذي دام قروناً ليصبح أكثر غنى وثراء. . .

ولكن هذه الحضـــارة لتجـــد عزاءهـا الكبـير في أولئـك العلماء المنصفين الذين أوقفوا أنفسهم على كشف الحقائق وإظهار ما قد تعمّد مواطنوهـم إخفاءه أو تعميته أو كراهيته من أحقيّة دور العرب والمسلمين وأهمية دورهـم وحضارتهم في مسيرة الحضارة الإنسانية.

الفصل الرابع

«مزالق الحضارة الغربية»

أدركنا في الفصل الماضي أن الحضارة قاسم مشترك بين الأمم والشعوب جميعاً، لكل منها حظ في دفع عجلتها أو ركودها بمقدار ما يمتد الزمن بهذا الشعب أو ذاك... وأدركنا أنه لا يستطيع أي شعب أن يسبح ضد تيارها وإلّا كانت النتيجة زوال تلك الحضارة وخراب هاتيك المماليك.

وعرفنا كذلك أن الأمة العربية كان لها دور كبير في إنقاذ بقايا حضارة اليونان من التآكل والتعفن ونهضت ـ وعلى أكتاف أبنائها مترجمين ومؤلفين، وقادتها المأمون والمتوكل والرشيد، وعملت على تطور الإنسان على الأرض، وكان الدين الفاعل الأعظم والمفجر الأكبر إذ وجّه طاقة أبناء الأمة العربية إلى احتضان شعوب الأرض بكافة حضاراتها وثقافاتها، كي تصب جميعها في بحر الحضارة العربية والإسلامية، وكانت قبلاً قد أعطت كل تلك الشعوب ـ من سكان البلدان المفتوحة ـ الحرية التامة في البحث والدراسة، ونشرت العدالة

والمساواة فلا فرق بين عربي وأعجمي ولا أبيض وأسود إلا بالتقوى.

ومن ثمَّ تمحورت كل تلك القوى البشرية الممتدة عبر المملكة الإسلامية المترامية الأطراف وتلاقت على غاية واحدة هي نشر رسالة السماء والعمل على رقي الإنسان فوق هذه البسيطة وإتمام معنى الخلافة لهذا الإنسان في الأرض، وإطلاق يده وفكره في جوانب الكون والسعي إلى كل ما فيه خير الإنسانية اتباعاً لكتاب الله الذي يدعو إلى العلم والعمل والرقيّ العلمي، وتحضير الإنسان والعمل على إسعاده.

وشهد التاريخ ـ وقد كتب ـ حضارة عربية إسلامية باهرة تفردت بسمات خالدة لم تشاركها حضارة أخرى، بل بدت حضارة اليونان والرومان كالسراب أمامها وقد صدق في هاتين الحضارتين وحضارة الإسلام قول المصطفى ﷺ: [ربّ مبلَّغٍ أوعى من سامع» فإذا علمتَ أن المسلمين أنفسهم كانوا يضعون في شروط الصلح مع أعدائهم شراء مخطوطات وعلمت أنهم كانوا يدخلون أقبية اليونانيين ـ بعد أن يدفعوا أثماناً باهظة ـ ويستخرجوا تلك الكنوز التي كاد يبليها الدهر(٥٠)، وأنهم ترجموها وبنوا عليها أضعاف أضعاف ما عرفوه منها. إذا أدركت ذلك عرفت أنه في نهر الحضارة قد صبّت جداول كثيرة كان منها الكبير والصغير، وأن الحضارة العربية كانت من أكبر هذه الروافد

---

(٥٠) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هونكة.

وأغـزرهـا بحيث استطـاعت وهي تصب في بحـر الحضـارة الإنسـانية الـواسـع ، أن تصبـغ تلك الحضارة بقيم ومبادىء وعلوم وعقائد ونظم كانت نسيج وحدها حتى يومنا هذا . . .

كانت تلك حضـارتنـا ومـا تركتـه من آثـار فماذا في حضارة أبناء الغـــرب في القـــرن العشـرين ، قرن الـذرة والكمبيـوتـر ، تعـال معي لأطلعك على هذه الحضارة والتي ما زال أهلها ينادون بتميُّزها وتفردها من بين الحضارات ، لترى الفارق بين حضارة العرب والتي ما زال أكثر المنصفين منهم يعترفون بها وبين حضارة الغرب التي أفلست أو كادت وهي تنحدر في واد صار من الصعب عليها الإمساك بزمامها . . .

بعث السيـد المسيـح عليـه السلام إلى أمة عمّها البغي والظلم والتعــدي محاولاً أن يطمْئن من جبر وتهـــا ويخفف من غلواء بأسهـــا ، وكذلك الأمم كلما عثرت في طريقها أو حادت عن جادة الحق رحمها الله بأحـد أنبيـائه . . . ولما أعلن اليهود كفرهم وعصيانهم وتمردهم وتجبر وا وطغوا عملوا على التآمر مع الرومان ضد السيد المسيح فرفعه الله إليه .

وانقضت عقـــود وعقـود تراخى فيهـا الـدين ودب فيـه الـوهن وانحـرفت النصـرانيـة بأحبـارهـا ورهبـانهـا ، ولمـا صارت دين الدولة الـرومـانيـة على يد قسطنطـين وُسِم الإنسـان بالخطيئـة وعـلاه الذل والصغـار . . . ومـع أن النصـرانيـة في الأصل جاءت لتكريم الإنسان وانتشاله إلا أن خطيئة آدم كما تصورها سدنة الكنيسة قد دمغت جنس الإنـســان كله ، حتـى كان يســوع هو المخلص والابن والأب وروح

القـدس. . . فكفّـر بنفسه عن هذه الخطيئة ـ في رأيهم ـ وما كان له أن يفعـل ذلـك لو لم يحمله هؤلاء المـدعون ما لم يكن. إذ العقل الإنساني يرفض أن يصـدق أن إنسـانـاً يملك الحكم والسلطـان والعفو يصلب نفسه، وبيده الحل الأمثل وهو العفو. . . فلماذا يعذب نفسه ويُصلب ولا يعفو. . .

وبتـولِّي قسطنطـين سنـة ٣٠٥ م دخلت الـوثنيـة إلى النصرانية والتي صارت دين الـدولـة، وعلى يد هؤلاء المـوظفـين الذين لم يكونوا يعتقدون النصرانية بصدق.

ولم تستطع النصرانية الملقحة بالوثنية الجديدة أن تنتزع الرومان من الحيـاة البـوهيميـة التي كانـوا عليها ومن الظلم والفجور الذي كان عليـه النـاس وحتى الحـاكم نفسـه. . . ولمـا عجزت الكنيسة أن تخط طريقهـا لخلاص النـاس في ذلـك الـزمان، ولم يمكنها أن تسيِّر الدولة الـرومـانيـة عبر هذه المبـادىء الجـديـدة لسيطـرة الشهـوات والبغي والفجـور، إذ كانت الامـبراطـوريـة الرومانية قد قطعت شوط ازدهار حضـارتهـا وبـدأت تنحـرف نحـو النهاية المنتظرة. . . لكل هذا لم يجد هؤلاء الـرهبـان ورجـال الكنيسة إلا اللجوء إلى الرهبانية والاعتزال، وكان أن عملت هذه الرهبانية على كبت الميول الفطرية في البشر ودفن الطـاقـات البشرية، بل وألجأت الإنسان إلى الجمود والتردي بدلاً من أن يصعد على سلم الحضارة، وكان مصير حضارة الرومان والإنسان

عامة ما وصفه ـ درابر ـ الأميركي في كتابه «الدين والعلم»[٥١].

«ولما بلغت الدولة الرومانية أوجها، والحضارة أقصى درجاتها هبطت بفساد الأخلاق والانحطاط في الدين إلى أسفل الدركات، وبطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض، واستهتروا وصارت الحياة عندهم فرصة للتمتع واللهو واللذة. . . وكان نظام روما المدني يشف عن أبّهة الملك ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي تراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها».

«ولما تراخت عرى الأخلاق في صيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا الحد، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعري المشين، وراجت مهنة المومسات وانجذبت إليها نساء البيوتات وشاعت المقالات الخليعة والقصص الماجنة. . . »[٥٢].

وقد انتهى كل ذلك إلى صراع أليم داخل كيان البشرية ودمار أصاب الحياة الاجتماعية.

جمود الكنيسة في العصور الوسطى:

وإذا كان الإنسان هو صانع الحضارة عبر التاريخ وكانت

---

(٥١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ العلامة أبو الحسن الندوي.

(٥٢) كتاب الحجاب للأستاذ أبو الأعلى المودودي.

الكنيسة خلال العصور الوسطى وعهود الظلمات قد اتخذت موقفاً عزل فيه العقل عن أن يشارك أو يناقش أو يحلل، فإنها بهذا دفعت به بعيد عصر النهضة وقبله، وبعد أن استيقظت العقول من سباتها، دفعت به إلى أن يضع المسيحية وعقائدها على منصة التحليل والدراسة، فكان أن رفضت تلك العقول ذلك الجمود الفكري الذي وسم الحياة الاجتماعية بصبغة الركود إلى درجة أن رجال الكنيسة دعوا إلى رهبانية تعتزل الحياة وتعمد إلى تعذيب الجسد وتدعو إلى التنائي عن الحياة ورفاهيتها، وقد رووا عجائب لهؤلاء الرهبان من نوم بعضهم في المستنقعات شهوراً، وتحمل البعض لسع الذباب السام، وسكناهم في مغارات السباع والمقابر، ومن ذلك أنهم يعدون طهارة الجسد منافية لنقاء الروح وصار أزهد الناس أبعدهم عن الطهارة واستمع إلى الراهب الاسكندري يقول: «وا أسفاه لقد كنا في زمن نعد فيه غسل الوجه حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات»(٥٣)، وقد أوردت زيغريد هونكة من قبل كيف اقشعر جسم الطرطوشي وقد رأى من قذارة الناس ما رأى(٥٤)..

وكانت نتائج الرهبانية مخاطر على الحياة الاجتماعية، وما لبث أن انتشر التهريب وخطف الصبيان واستحالت أخلاق الناس إلى رذائل وضاعت القيم واحتلت القوة مكاناً وصارت أداة للظلم

---

(٥٣) الإسلام ومشكلة الحضارة ـ سيد قطب.

(٥٤) شمس العرب تسطع على الغرب ـ د. سيغريد هونكة.

والطغيان وزهد الناس في الحياة، وتزلزلت الأسرة واضطرب المجتمع وسحقت الميول الفطرية في الإنسان والتي تدعوه إلى استخدام العقل. . .

وكانت الطامة الكبرى يوم وقفت الكنيسة في وجه العلم والحضارة بما كانت تتبنّاه من آراء علمية خاطئة وخرافات وأساطير شائعة، واعتبرت ذلك جزء من الدين وعارضت المنهج العلمي التجريبي الذي تسرب إلى الناس من الجامعات الإسلامية. .

فكان أن حرقت العلماء وكتبهم وحاكمت البعض وطردت آخرين وأمعنت في الكيد لكل رأي متحرر حتى آذن ذلك بظهور الحركة البروتستانتية كرد فعل لجمودها».

وقد رانت الكنيسة على ضمير الإنسان وعقله وأخلاقه بما تملكه من عقائد فاسدة وجمود فكري إلى أن بزغ فجر النهضة وكان الصراع حاداً بين العلم والكنيسة بين العقل والدين.

مادية الحضارة الغربية:

كانت حضارة الغرب قبل ذلك قد اتصلت بالحضارة العربية والإسلامية التي كانت تتمدد وتنتشر أنوارها في الأرض عبر قنوات عرفنا منها الحروب الصليبية، وعبر المعاهد العلمية في الأندلس وصقلية مما ترك أثره على أوربا في نهضة فكرية أدت إلى رفض هؤلاء

الكنيسة وجمودها. ترى إلى أين وصلت حضارة الغرب بعد ذلك . . .

لقد انتحى الغرب منذ عصر النهضة في القرن السادس عشر منحى مادياً معارضين الكنيسة وراحوا يلغون دور الدين والاله، وأعلنوا سيطرة الإنسان على الطبيعة وإخراج معادنها وسيطروا على برِّها وبحرها وجوِّها، وفاق أجداده عبر مئات القرون . . . وتطورت العلوم في كل مجالات الحياة واستطاع الإنسان أن يخلق من المادة وسائل رفاهية وراحة جعلته يستمتع بها أعظم استمتاع.

وفي غمرة انشغال الإنسان بالتيار المادي العلماني المنصرف عن الدين والروح . . . نسي الجانب الآخر من الحياة بل هو نسي حتى أن يبحث في أغوار نفسه ليعرف من هو؟ وهذا ما نفهمه من تأخر ظهور الدراسات النفسية والاجتماعية، بل أن الدكتور الكسي كاريل يقول رغم كل ذلك التطور المادي: «حقيقة عِلْمنا عن الإنسان لا شيء، وإننا نعيش في جهل مطبق بهذا الكائن الذي هو نحن(٥٥) فإذا سألنا لم كان ذلك؟

أجابنا «لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية وما زالت غير معروفة» ثم راح يتساءل: ما هي طبيعة تكويننا النفسي والفسيولوجي، كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه في المدنية العصرية، وكان سبب كل ذلك في رأيه:

---

(٥٥) الإنسان ذلك المجهول د. الكسيس كاريل.

«لأن قهر العالم المادي الذي استأثر باهتمام الإنسان بصفته المستمرة أدى إلى نسيان العالم العضوي والروحي نسياناً تاماً».

إذن فالحضارة ليست مادة فحسب، وليست روحاً فقط وإنما هي روح وجسد، عقل، وقلب دنيا وآخرة. أما أن تعتبرها مادة فحسب، وصناعة وتجارة وبناء لهذا العالم المادي فقد سبقهم إلى ذلك الرومان فشادوا ما شادوا، وانتهوا إلى ما انتهوا إليه.

«ومشكلة الإنسان في عصر الطاقة أنه يعالج الأمور من قناة واحدة وهي القناة المادية البحتة... وهو يفعل ذلك يرى نفسه وجهاً لوجه أمام القناة الأخرى الروحية. إذ كيف ينسى أنه مخلوق من مادة وروح، من شر وخير، من ظلم وعدل.. وأن عليه أن يوازن بينها عن طريق جهاز المناعة الروحي... نسي أن فيه نفخة من روح الله تمثل جهاز الرقابة الروحي على كيان الإنسان بكامله.. وإن حاول تعطيل هذا الجهاز فإنه لا محالة في الهاوية ساقط»(٥٦).

انحراف الحضارة ومزالقها:

وهكذا كانت للحضارة الغربية مزالق عدة ما زالت تؤدي بها إلى العد التراجعي على الرغم من كل مظاهر الرقي والتطور المادي

(٥٦) رسالة الجهاد العدد ٨٢ ـ مقالة العصر إلى أين لزيدان عبد الفتاح.

ومن تلك المزالق انعدام العقيدة المهيمنة على روح الإنسان، وسيطرة النـزعـات الإبـاحية والدعارة، وانتشار الخمرة والأفيون، ودور القوة في تسلط الجنس الأفضل، والعبثية والضياع الذي آلت إليه تلك الحضارة.

أمـا في ميـدان العقيـدة والفكـر المهيمن، فإننا نرى أن الحضارة الإسلامية كان يرافق نهضتها العلمية في كل خطوة عقيدة ثابتة في قلب كل عالم ومفكـر وسيـاسي، عقيـدة ذات منهـج ربـاني محكم يرسم لها طريق النجـاح وكـان المسلم ملزمـاً باتبـاع منهج الله في التفكير والبناء والعمل ولهذا لم تتحول القوة عند بناة الحضارة من الفاتحين إلى سلاح لإبـادة الشعـوب الضعيفـة أو التحكم بمصـائـرهـا كما تفعـل الـدول العظمى اليـوم من التـدخـل المبـاشـر وبآلات الحرب والدمار، بل وما كانت العقيـدة لتسمـح لهم أن يتوقفوا عن نشر علومهم في أمم الأرض بل ومـا كانت لتسمـح لهم أن يخرجـوا عن نظـام الله في الأرض، في السياسة والاقتصاد والعلوم إذ الكل منضبط بتعاليم الله وضوابط كتابه.

أمـا وقـد وقـع الطـلاق نهائيـاً بين العلماء والكنيسـة، وبـانت الكنيسة بينونة كبرى، فلم يعد ثمة مجال أو دور للدين ليفرض سلطانه بل قل معي أن عهداً من القطيعة التامة قام بينهما انتهى إلى تحدٍّ سافر أطلقـوا فيـه شعـارات العلمانيـة والدين أفيون الشعوب، وراحوا بكلّ علومهم يبنون الحضارة المادية ليثبتوا لهؤلاء بأن الإنسان قادر على أن

يرسم طريقه دون وساطة الدين أو مساعدة الإله.

وقد خدع الأكثرون من هؤلاء العلماء وهم يرون أن الإنسان صار سيد زمانه وابن وقته وتمادى فألّه نفسه، وأعلن بعض الفلاسفة عن تأليهه لعقله الجبار، كان ذلك في منتصف القرن الثامن عشر - عصر التنوير - وأن له السيطرة على جوانب الحياة بل هو حر فيها يعمل فقد انتهى عصر تدخل الدين في الحياة.

ويروح هذا الإنسان بعقله الجبار دون عقيدة ترفده، ليبني ماشاء أن يبني من وسائل الحياة المادية التي أدت إلى رفاهية. . . ويبدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة للإنسان وعقله. . . إذ يدخل عصر الفلسفة الوضعية التي أعلنت عن ألوهية المادة. . . كان ذلك بعد أن ألّهتْ تلك الحضارة الإنسان ورأت أنه مال إلى عصبية الجنس فأعلن عن الجنس المختار ولم يستطع أن يعدل في استخدام القوة فراح ينقضّ على الشعوب المجاورة وكانت الحروب المدمرة مما دعا إلى ظهور الفلسفة الوضعية الجديدة بمبادىء تعلن أن المادة والطبيعة هي الإله، وبهذا تضاءل الإنسان وتضاءل عقله معه ولم يعد إلهاً وإنما صار من مخلوقات الطبيعة.

ثم جاء دارون وصفع هذا الإنسان وردّه إلى الوراء قروناً عندما أعلن عن أصله فوقف الإنسان مبهوتا ماذا يراد به؟ ومن يدري وقد كان قرداً يوماً ما، أن يتحول إلى فأر في المستقبل طالما أن قانون التطور

لا يتـوقف كما يرى جوليـان هكسلي[٥٧] وإذا كان الأمر كذلك فما أسرع ما ينظـر الإنسـان إلى نفسـه بالحقـارة والاشمئـزاز، ويـروح يعب من الشهـوات والجنس ما ينسى فيـه نفسـه وواقعـه الأليم . . . وبـذلـك عمـلت تلك الـفـلسـفـات والمـذاهـب على تدمـير الإنسـان من الـداخـل . . . ففقـد ما كان الـدين قد أسبغـه عليـه من تكريم وتفرد وخصوصية ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر﴾ كما أفقدته تلك المـذاهب كل ما خلعتـه عليـه فلسفـة عصـر التنـويـر من إيجابية واستقلال وسيطرة .

ثم كانت خاتمـة المطـاف عنـد كارل ماركس في رد تصـورات التاريخ إلى الاقتصاد وأن الإنسان لا حول له ولا قوة أمام إله الاقتصاد والمـادة . . . وتبعـه فرويـد فأعمـل معـولـه الأخـير في جدار الفضيلة الإنسـانيـة عنـدمـا راح يربط كل خلق وأدب ودين وفضيلة بالجنس مما أفقد الإنسان كرامته وأخجله من نفسه .

وقد انتهت تلك المذاهب بتحطيم سلوكية الإنسان وكان لها أثر بالـغ في التخبـط والاضطـراب في الأنظمـة والأوضـاع لم يستطع معها الـرقي المـادي أن يصلح ما أفسـدتـه في أعـماق الإنسـان واستمع إلى الكسيس كاريل يصور موقع هذا الإنسان :

«يجب أن يكـون الإنسـان مقيـاسـاً لكل شيء ولكن الواقع هو

---

(٥٧) الإسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب .

عكس ذلك فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . . . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد في علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية . . . »[٥٨] .

وهكـذا نهضت الحضـارة ببناء مادي خارجي باهر وعجزت عن أن تبني هذا الإنسـان من أعـماقـه يقـول كاريل : «إن الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة العصرية قد أخفقت في إيجاد رجال على قسـط من الـذكاء أو الجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تعثر فيه لأن بني الناس لم ينموا بالسرعة التي تثب بها الأنظمة من عقولهم .

وكيف يعثر هؤلاء على الرجل الذكي العاقل وقد صار أهون ما لديهم هو الإنسان التي احتلت المادة مكانه . . .

ومن مزالق هذه الحضـارة اليـوم ما آلت إليه من سيطرة النزعات الإبـاحيـة والشهـوات وأسـاليب الـدعـارة والشذوذ الأخلاقي وانتشار الأفيـون والمـارانجـونا وامتداد بؤرة الأمراض الجنسية الخطيرة كالإيدز والتي تنذر اليوم بعض الأمم من أنها ستفقد بالإيدز من ٣٠ ـ ٤٠٪ من سكانها خلال بضعة سنوات . . .

وعندما ارتد الإنسان معارضاً الدين ومهاجماً الكنيسة ، ومتحدياً لسلطـانهـا كان في ظنه أنه يستطيع أن يبني حياة هادئة مستقرّة لا يكدر صفـوهـا مكـدر . . ولكن لم يكن في حسبـانـه أن هنـاك أمـوراً تفوق

---

(٥٨) الإنسان ذلك المجهول ـ د. الكسيس كاريل .

حساباته وأن بريق الحياة المادية والحضارة والتطلع إلى الثروة والغنى، كل ذلك سيدع الإنسان ينحرف عن مسار الحياة الكريمة، ويدوس الأخلاق الفاضلة. . . بحجة أنه تحرر من سلطة الكنيسة وأنه استخدم عقله في التحكم بهذا العالم، بل قل إنه صار إلهاً كما نعتوه. . . ولهذا فقد ركب مركباً صعباً لم يستطع بين كل تلك التيارات أن يضبط سفينته فراح يعلو ويهبط وسط أمواج المادة التي تعصف به ومازالت. . .

ورافق ذلك الارتداد من الإنسان تحرر المرأة وخروجها من قمقمها حيث راحت تتبرج في الأزقة ناشرة جمالها وفتنتها وعريها، وظهرت بؤر المومسات حيث تضيع كرامة الإنسان وتختلط الأنساب، واستطالت المرأة في غيها ساعدها في ذلك حكام خرجوا عن حدود الدين وجمود الكنيسة ليعلنوا الحرية في كل شيء. . .

وإذا كان أقطاب المسيحية الأول يرون أن المرأة مدخل الشيطات إلى النفس وأنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة ومشوهة لصورة الله ـ الرجل ـ وإذا كان آخرون يرونها شراً لا بد منه وأن العلاقة الجنسية هي نجس يجب أن نتجنبه ـ ولو عن طريق نكاح مشروع ـ إذا كان هذا التصور الرهبني قد فرض نفسه يوماً ما فإن المرأة اليوم قد انعتقت من سجنها وخرجت من طوقها وراحت تعاشر من تشاء وتفعل ما تشاء لدرجة أن مسألة العلاقة الجنسية صارت عند أكثرهن مسألة بيولوجية بحتة لا صلة لها بالأخلاق عندهم لأن النعجة والخاروف

والبقرة والثور يزاولان ذلك دون أي تأثر أو تحسس لشيء[٥٩]. فانظر يا رعاك الله ـ كيف صار مفهوم الجنس عندهم مجرداً من الأخلاق بل صاروا لا يفرقون بين العلاقة المقدسة عند الإنسان وبين العلاقة البهيمية عند الحيوان. . . ألا ترى أن الإنسان قد مسخ هنا أحقر من قرد. . .

ولما عجزت هذه الإباحية المطلقة عن إشباع الميول وإرواء الغرائز انتشر الشذوذ الجنسي فصرت تسمع عن قانون بريطاني رسمي يبيح اللواطة وصرت تسمع بأنواع من الشذوذ ماكانت تخطر على بال. . . وكان لا بد أن يدفع هؤلاء ضريبة الخروج عن قانون الله. . .

فكانت الأمراض الجنسية المختلفة التي كان آخرها الإيدز والذي يفقد المصاب به جهاز مناعته ومقاومته الداخلية للأمراض، وعندها يصبح الموت أهون مخلص من الآلام، . . . وقد رافق ذلك الخروج عن قانون الله انتشار الأفيون والمخدرات والخمرة. . . بحيث صرنا نسمع عن صيحات المنذرين لدرجة أن الرئيس الأمريكي رصد عشرة مليارات دولار لمكافحة الخمور والمخدرات. . . ولكنهم لن يستطيعوا ذلك. .

إن الإسلام وحده هو الذي استطاع إيقاف ذلك تدريجياً

---

(٥٩) الإسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب.

وبعقيـدة منبعثـة من أعـماق المسلم . . وهـو ما يرجى أن يقوم به عندما تخفق رايـاتـه في أقصى الأرض . ومن مزالق هذه الحضـارة التي تدّعي رقي الإنســان على الأرض الأخطــار المتـوقعـة من القنـابـل الـذرية والإشعـاع الـذري الـذي بات الإنسـان يتخوف من آثاره والذي قسم المجتمـع الإنسـاني إلى معسكـرين يتربص أحـدهما بالآخـر الـدوائر وأمست الأرض معلقة على كف عفريت .

ومن نتائج تلك الحضارة ما نسمعه كل يوم من تلوث البيئة جواً وبـراً وبحـراً حتى بات الإنسان على شفا جرف هار من الموت خنقاً أو تسمـيـماً ، لقـد صار السعي نحـو الاهتـمام بالبيئة وعدم تلوثها جزء من عمل كثير من المؤسسات في الدول . . .

هذا كله إذاً حصـاد تلك الحضـارة اليـوم وأنت تلمح في الواقع ضيـاع الإنسـان على الأرض وهو لا يدري ما يراد به لاختلاف النظم والمـذاهب وفسـاد الأخـلاق والقيم وتحكم النـزعة المادية وخروج المرأة الفـاضـح ، فسـاد في الإنسـان عقـلاً بالأفيـون ، وخلقاً في التحرر غير المنضبط ، وديناً في نبذ العقيدة ، وإنسانياً في سيطرة المادة عليه . . .

هكــذا عم الفسـاد كل شيء حتى أمسى الإنسـان يفتش عن طريقـه في صحـراء ليلهـا مدلهم وحـيرتها قاتلة وما من أحد يمد له يد النجـاة ، ومـا تزال الحضـارة الغـربيـة تعبر بالإنسان بمنهج من صنعه مستبعدة الدين والعقيدة ظناً منها أن العقل يعصمها من الزلل . . .

أمـا الإسـلام فقد أطلق يد الإنسان في عمارة الأرض واستخدام

طاقاتها وخاماتها تحليلاً وتركيباً وتعديلاً، بينما هو وضع له منهج حياته ولم يكل إليه وضع ذلك المنهج لأنه مزود بطاقات تمكنه من التحكم في المادة عن علم نسبي - بينما لم يزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه . . . وقد رأينا في تحليل ظواهر تلك الحضارة أن الإنسان رغم كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة في الأرض ورغم ما سخّر له من القوى والطاقات وعلم كل ما أودعه الله من إدراك النواميس الكونية، على الرغم من كل ذلك فهو ما يزال مخلوقاً ضعيفاً غلبته شهواته وحكم فيه هواه وقعد به ضعفه، فشرب الخمرة والأفيون وخرق طبقة الأوزون ولوّث البيئة وأهلك الحرث والنسل وتحدّى الله . . . لهذا كله لم يَدَعِ الله له أمر نفسه ولا تركه يرسم منهجه في الحياة وحده ولكنه تولى ذلك عنه ليريحه.

وإذا كان الإنسان على تلك الدرجة العظيمة من الجهل بنفسه فإن هذا يقتضي منه أن يظل لاصقاً بالله قريباً منه مهتدياً بهديه، فلا يغترّ بفتوحات العلم في عالم المادة. ولكنه آثر الهروب من الكنيسة والخروج من الدين والتحدي المباشر فكان أن سقط في فخ الضياع والعبثية وهو الآن يعاني من مرارة الاحتضار بانتظار من ينقذه . . .

الفصل الخامس
دارون . . . ومذهب التطور . . .

عزيـزي القـارىء : هل لك أن تغـير هوتيك اليوم لتتحول من دائــرة البشـر إلى أصلك الجـديـد الـذي يقـترحـه عليـك «هيكـل» وزمـلاؤه . . . فتحمـل هويـة قرد . . . وليكن ذلـك من باب التطـور والـرقي والتجـديـد . . . فإذا رفضت ذلك فإن هؤلاء العلماء يحاولون ارغامك على هذا الأصل ولو واجهتهم بالرفض المقيت . . . ترى ماذا سيكون رأي هؤلاء القرود المساكين من حولنا والذين لم يكتمل نموهم وارتقـاؤهم في سلم التطـور ليصبحـوا بشـراً مثلنـا ، بل ماذا سيكـون موقفهم إذا علمــوا أننـــا استلبنـــا صفـاتهم؟ وكيف سيتم تنظيم هذه القـرود الجـديـدة. إن كنت لا تريد ذلك فتعال معي لتسمع القصة ، قصـة أصلك الجديد والذي يراه أصحاب النشوء والارتقاء وماذا أرادوا به ، وماذا كانت نتائجه الخطيرة على البشر حتى يومنا هذا . . . ؟؟

الـديـانـات السـماوية بما حملته من مفاهيم وعقائد وقيم وقوانين تؤدي إلى سعادة الإنسان على الأرض لو أحسن اتباعها ، فالمسيحية واليهـوديـة وإن حُدّثت بزمنٍ فإنهـا كانت تحمل بذرة سعادة الإنسان في زمـانهـا كما تحمل بعض القيم والأخلاق الخالدة كعقيدة التوحيد والمثل

العليـا التي دعت إليهـا . إلا أن رسـالـة الإسـلام كانت تحمـل صفـة الشمـوليـة والكليـة في معـالجـة قضايا الإنسان على الأرض ، بل هي الشـريعـة التي أثبتت ومـا تزال تثبت نفسهـا في هذا القرن قرن العلوم والانفتـاح والكمبيوتر والفضاء والنشوء والارتقاء . . بل كانت السابقة إلى كل مبـدأ كريم ، وكـل مبحث علمي توصـل إلى حقـائق ثابتة مما أعطاها سمة الخلود على الزمن . . .

وعلى مدى قرون متطـاولة وبعيد عصر النهضة ومحاولة الإنسان اختـراق حجب المجهـول والسعي نحـو العلم والاختراع وارتياد آفاق جديـدة وحـل بعض ألغـاز كانت مستعصيـة ، ومن ثم الانطـلاق إلى مايشبـه التحـدي . . . هذا الانطـلاق كان الإسلام أسبق إلى الدعوة إليـه بقـرون وقـرون ، بل هو بأبنائه استطاع بناء حضارة ما تزال آثارها شاهـدة عليهـا ، في الغـرب ، وقـد فاقها بها رسم لهذا الإنسان من قيم أخـلاقيـة وإنسـانية دعاه للالتزام بها ، وهو يسعى منطلقاً لكشف آفاق المجهول في الأرض وفي السماء ، وفي الحيوان والنبات أو في ذات نفسه . وقد أدرك الإسلام أن هذا العقل يملك من الطاقات الهائلة التي منحه الله إيـاهـا ما تمكنـه أن يهتدي إلى عظمة الإله الخالق ولذا كانت دعوة الإسـلام إلـى الاكتشـاف والعلم والبحث والتمحيص واستخـدام العقول . دعوة مفتوحة ليس لها حدود في قوله تعالى : ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض . . .﴾ . (سورة يونس) آية ١٠١

ولـما صحا الغرب وجد أبناؤ ه أمامهم حضارة للعرب والمسلمين

متكـاملة الجـوانب فراحـوا ينهلون من معينهـا في الـوقت الذي ران فيه الاستعـمار بأشكـالـه على الأمـة العربية، وزحف يكتشف أسرار هذا الكون وآفاقه المتطاولة، ولما فوجىء بالكنيسة تقف في وجهه حائلة دون انطـلاقـه قامت حرب طاحنة بين العلم والدين وخرج العلماء منها هم المنتصـرون واضطـرت الكنيسـة أن تسلّم لهم بمتـابعـة أبحاثهم. ولما تهيأت الـوسـائـل المـادية التي تحمل الإنسان على ارتياد ذلك المجهول راح الإنسـان يعمـل فكـره وتتـالت الاكتشـافـات التي أخـرجت كنوز الأرض والسماء المبهمة فكان أن طار الإنسان في الفضاء وغاص في الماء وأطاعه الكون. . .

ولمـا كان العقـل محدود الأجـواء مهما تعاظم، لهذا كان لا بد أن يستقـر عنـد نقطـة ما ويقر بعجزه عن اختراق المستحيل. . . فكان أن خاضت العقـول في قضيـة وجود الاله أوعدمه، واستسلم العقلاء من الفلاسفة، وأعلنوا عن وجود الله، وأن المادة لا يمكـن أن تصنع نفسها بنفسهـا دون أن يكـون لها صانـع، والأغلب من هؤلاء أعلن إلحـاده وبهذا سرت موجة الإلحاد في القرون الأخيرة.

إلى أن نهض العلماء وتفـرعت العلوم وراح هؤلاء المفكـرون يبحثـون بإخـلاص ونـزاهـة مستخـدمين التجربة والاستقراء ومناهج البحث العلمي فكانوا يصطدمون مع الآخرين الذين يرون أن الخليّة الصغيرة أو الكريّة البسيطة ذات الخلية الوحيدة والتي زعموا أنها أصل الحيـاة ـ بينـما تبـين لهم أنهـا ليس لها حركـة بمفـردهـا، في حين زعم

الآخرون أنها تنمو بالتوالد الذاتي كما قال آرنست هيكل وزملاؤه . . . ولكن من يصدق أن خلية صغيرة جامدة تنامت بالتولد الذاتي هكذا وبدون مُحرِّك أو صانع وهي في ذاتها صماء بكماء عمياء لا تملك عقلاً .

ثم كان ما كان من تلك البحوث العلمية التي أدت إلى النظر في الأحياء على الأرض ودراسة أشكالها وأوضاعها ونموها وتطورها والقوانين التي تحكمها ، وبدأت تلك المحاولات على يد ـ لامارك ـ بفرض تفسيرات معينة يرتبط معظمها بعوامل البيئة والمناخ أقام عليها تصوره لفكرة التطور، ولكن ما لبثت مدة حتى ظهر فساد تلك الفكرة وتلاشت . إلى أن ظهر دارون عام ١٨٧١ بكتابه «أصل الأنواع» وأعلن مذهبه في التطور والذي كان له من الأثر مالم يكن يتوقعه دارون نفسه ، إذ انتهى ذلك المذهب على يد خلفائه إلى نشر الالحاد والدعوة إلى المادية البحتة فكان أن أدت إلى انحراف الغرب عن الدين وادعت أن الأخلاق والقيم والدين تتطور كالإنسان ولا شيء ثابت فما هو هذا المذهب وما هي براهينه وآراؤه؟

خلاصة هذه المذهب أنه يقوم على أربعة نواميس :

أ ـ **ناموس تنازع البقاء** : أي أن الأحياء تتنازع مع نفسها ومع الطبيعة ويتم الفوز لأحدها بما يملك من صفات القوة والشجاعة أو كبر الجثة وصغرها أو السرعة أو الذكاء . . . وبهذا يكتب البقاء للصالح للحياة ويفنى الآخرون وهذا هو معنى تنازع البقاء .

ب ـ **ناموس التباينات بين الأفراد** : أي أن الأجسام الحيّة تتباين

وتختلف ببعض صفاتها عن الأصل الذي نشأت فيه ولذا لا يكون التشابه تاماً بين الآباء والأبناء، وإذا كان هذا التباين جزئياً لا يمس الجوهر إلا أنه بمرور الدهور الطويلة يظهر التباين كبيراً ويكون النوع الجديد.

جـ ـ ناموس الوراثة: أي أن تلك التباينات تنتقل بالوراثة من الأصول إلى الفروع، وتكون جزئية في البداية ومع الزمن تؤدي إلى ظهور أنواع جديدة.

د ـ ناموس الانتخاب الطبيعي: وهو الذي يرتكز عليه مذهب دارون وخلاصته أن ناموس الوراثة كما ينقل التباينات ينقل أيضاً جميع الصفات التي يحملها الأصل إلى الفرع مادية كانت أومعنوية وهذه الصفات منها النافع كالقوة والذكاء ومنها الضار كالأمراض والعاهات. أما الضارة فإنها إما أن تتلاشى وحدها أوتقضي على صاحبها وأما الصفات النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازاً في معركة تنازع البقاء.

ثم تتوارث الفروع هذه الصفات النافعة جيلاً بعد جيل وبعد ألوف الأجيال يبلغ الامتياز حداً يجعل من الفرد الممتاز نوعاً جديداً، وهذا هو ناموس الانتخاب الطبيعي الذي يراه دارون سبباً لتكوين الأنواع الحية الموجودة على سطح الأرض[٦٠].

أما خصوم دارون فقد نقدوا هذا المذهب علمياً ورأوا أنه ليس

---

(٦٠) قصة الإيمان ـ نديم الجسر.

قانوناً شاملاً للأحياء كلها ولا يثبت أمام الواقع المرئي في الطبيعة، فالحيوانات البحرية الدنيا باقية حتى الآن على الحالة التي كانت عليها في ابتداء العالم، ولم تتأثر بناموس الارتقاء. . . كما وجدوا طوائف الأحياء الكبرى (الدنيا منها والعليا) وجدت منها آثار في أسفل طبقات الأرض فلو كان ناموس الارتقاء أكيداً لوجب أن يكون الأعلى منها كذوات الفقرات في أعلى الطبقات.

وكما أننا نجد كثيراً من الأجناس والطوائف كانت في العصور القديمة الأولى أكمل منها اليوم. وهذا يعني أن تلك النظرية وإن حملت بعض الأدلة على بعض الأحياء إلا أنها لم تثبت نفسها في بقية الأحياء التي خالفت منطوقها. .

وإذا كان دارون يميل إلى رد الأنواع وتطورها ـ كما يقول حسين الجسر ـ إلى أصل واحد بناء على مذهبه في ارتقاء الأنواع. إلا أنه بقي مؤمناً بوجود الله ولم يتردد في الاعتراف بأن الله هو الخالق لأصل الأنواع. لأن عقله لم يصدق رأي القائلين بأن الأنواع تولِّد نفسها ذاتياً وبفعل الطبيعة. . . ورغم ذلك لم تسلم نظريته من التهجم الشديد من رجال الكنائس ورؤسا الجامعات. . . ومن هؤلاء الكاردينالماننغ الذي ذكر:

«أن مذهب دارون هو فلسفة وحشية تؤدي عقلاً إلى إنكار الإله»

ووصف العلامة قسطنطين جيمس في كتابه «الإنسان القردي» أن

مذهب دارون أسطورة أو أضحوكة(٦١) .

ودعـا د. هدج من جامعـة برنستـون إلى منـع انتشار مثل هذه المـذاهب التي تتنـافى مع الكتب المقـدسـة وقد ردّ دارون على منتقديه معتـذراً بأن ما نعلمـه عن تاريخ الإنسان لا يبلغ شيئاً إذا قورن بمبلغ جهلنا بالتاريخ(٦٢) .

رأي خلفاء دارون :

وقف بعض الملحدين في وجه دارون لاعترافه بالله واتهموه بأنه يمالىء رجـال الـدين وزعمـوا أن أصـل الحياة كريّة بسيطة ذات خلية واحـدة زعمـوا أنهـا تتكون من الجماد ـ بالتولّد الذاتي ، وأشهر القائلين بهذه النظـريـة العـالم البيـولـوجي الألماني أرنست هيكل ، وبنى هيكل مذهبه على بعض مفاهيم نظرية دارون إلا أنه بالغ في استنتاجاته حداً جعله يخرج عن المعقولية في تفسير أصل الأنواع ، مما جعله يرضى أن المادة في الخلية الصغرى تولدت ذاتياً دون صانع وهذا مالا تقره عقول الإنسانية فضلاً عن رفض الديانات السماوية له .

يقول هيك : إن الكون مؤلف من المادة ، والمادة من ذرات ومن هذه المـادة ظهـر كل ما في الكـون من أحياء وغير أحياء . وحركة العالم

---

(٦١) قصة الإيمان ـ نديم الجسر.

(٦٢) الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي .

هي حركـة تطـور تبـدأ من أبسـط الذرات وتنتهي إلى أرقى الكائنات كلهـا حيّهـا وجـامـدها فهي تتألف من عناصر واحدة لا فرق بين حيّ وجامد لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في المواد غير العضوية وأنـه بالإمكـان تحضـير بعض مركبـات عضـوية بطريقة صناعية . . . وعلى هذا الأساس يقرر هيكل أن أبسط أنواع الحيوان نشأت من مادة غير حية بطريقة التوالد الذاتي . .

أمـا كيف تنشأ الحيـاة من الجـماد فهذا ما عجز هيكل عن إثباته ونسي عنـدهـا أن هذه الخليـة تحمل روحاً من روح الله يجعلها تتحرك وتنقسم لتولد الكائن الحي . .

ولمـا بان عجـز هؤلاء العلماء أمثـال هيكـل وبخـتر ـ فبـدل أن يسلِّموا لتفسير الكتب المقدسة في أصل الأنواع والحياة ـ راحوا في عناد وضلال بالغ ، فلم يكتفوا أن الناس لم تقتنع في أن الكريّة الأولى ، التي وجـدت تنـامت بالتـولـد الذاتي ، لأن هذه الكريّة ذاتها على بساطتها ذات بنـاء وتـركيب يمتنـع صدروها من الجماد مباشرة . . . فلم يكتفوا بعدم وجود الدليل القاطع على صحة مذهبهم ، حتى راح غلاتهم من الماديين ينكرون ـ الخلق الدفعي ـ المباشر الذي ذكرته الكتب المقدسة وزعموا أن الإنسان أصله من القرد واستدلوا كما يقول العلامة الجسـر[٦٣] بالشبـه العظيم بينـه وبين القرد في أكثر الأعضاء ، والطبائع

---

(٦٣) قصة الإيمان ـ نديم الجسر.

كالحيض والعـواطف كالفـرح والحـزن، وشيء من القـوة والتفكير مع فارق في درجات الرقي، ولكن هؤلاء تحيّروا في كيفية انتقال القرد من الحيـوانيـة إلى الإنسـانيـة نقلتـه الأخـيرة، فقال بعضهم حصل ذلك فجأة، وقـال آخـرون بالتـدريج وبحثوا عن الحلقة المفقودة في طبقات الأرض لم يجدوا أثـراً ولم يتمكنـوا حتى اليـوم من البت في تلك المسألـة برأي قاطع.

وقـد تصـدى كبـار علماء العصـر للردِّ على هؤلاء الـذين كان لمذهبهم هذا أثر بالغ في حرف الإنسانية عن الاعتقاد بالله وحملها على إنكـار وجـوده دون دليل ولا حجة فما هو رأي العلماء (أصحاب الإيمان العقلاني) أولاً وما رأي الدين ثانياً.

ردود العالم كريسي موريسون:

نفخت آراء هذا المـذهب الـروح في علماء آخـرين حتى ألف بعضهم ـ جوليان هكسلي ـ كتاباً سماه «الإنسان يقوم وحده» مدعياً أن العلم ينكر وجود الله، ولكن أكبر علماء أمريكا ورئيس المجمع العلمي هنـاك، كريس موريسـون، ردّ عليـه بكتـاب سماه «الإنسـان لا يقـوم وحده» أثبت فيه أن الله باريء هذا الكون.

وفيما يلي ملخص لما يدور حول موضوعنا عن التطور(٦٤):

(٦٤) العلم يدعو للإيمان ـ كريسي مورسون ترجمة محمود صالح الفلكي.

لما ظهر دارون طرقت فكره نظرية بقاء الأصلح، وقد أيد نظريته ببراهين ما زالت ثابتة كشفت لعالم الفلسفة كثيراً من الحقائق التي يمكن إيضاحها، ورغم دقة براهينه واستنتاجاته فإنه لا يقدر أحد حتى الآن أن يقول ما قال هيكل: «أنه لو أعطي ماء ومواد كيماوية ووقتاً كافياً لاستطاع أن يخلق إنساناً».

كما يقرر - موريسون - إلى أن أتباع دارون وصلوا إلى الإلحاد المادي، وتطرف الآخرون الذين ألهموا الإيمان بوجود الخالق، وأن هناك غاية لجميع المخلوقات، وأنكروا نظرية التطور إنكارهم للالحاد. ويصرح موريسون إلى أن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة، وأن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون، ويورد قول اسبورن: «بين جميع الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الكون يقف الإنسان في الطليعة، وبين الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الإنسان تتركز الصعوبة الكبرى، فيما له مخ وذكاء وذاكرة وآمال وقوة كشف».

ثم راح يدرس النظام الذي قام عليه هذا الكون بنجومه وأقماره ونظامه الشمسي وأفلاكه المتعددة، وأرضه وسمائه والهواء المحيط به، والغلاف الجوي المحيط ونظام التنفس عند الإنسان والنبات وكيف يتكاملان، ثم درس الحياة وكيف تستخدم ذرات الأرض وتخلق عجائب جديدة طبقاً لقوانين الكون.

وكيف تغلبت الحياة على الظروف المتغايرة للماء والأرض والهواء ولا تزال ماضيــة في طريقهـا في شكــل نبـات وحيـوان، ومن الآميبيـا صاعدة إلى السمك والحشرات وذوات الثدي وطيور الجو أو نازلة إلى الجرثومة والميكروب والبكتريا . . . وكذا في شكل خلية أو سمكة قرش أو عنكبوت أو ديناصور أو إنسان . . . والحياة قد جعلت الإنسان وحده سيـداً على تموجـات الصـوت . . . والحيـاة مهنـدسة هندست سيقان الجنـدب والـبرغـوث والعضلات والمفاصل، وهي كيماوية تهب المذاق للفـواكـه والتـوابل والعطر للورد، والحياة مؤرخة كتبت تاريخها صفحة صفحـة على الصخـور . . والحيـاة تلون عينيّ الطفل وتمنحهما بريقاً، وهي تمنح المخلوقات وسائل الدفاع عن النفس . . .

أمـا المـادة فإنهـا لم تفعـل ذلـك قط بل هي لم تفعل أكثر مما تمليه قوانينهـا فالـذرات إنـما تطيـع قواعـد الإلفـة الكيـماويـة وقـوة الجاذبية وتأثـيرات درجة الحرارة والدوافع الكهربية، والمادة ليست مبتكرة، أما الحيـاة فإنهـا تأتي إلى الـوجود بتصميمات رائعة جديدة ـ وبدون الحياة تكون المادة جامدة ومتى تركتها الحياة عادت مجرد مادة ـ ولكن تبقى لها القدرة على مواصلة حياة مخلوقات أخرى وبذا تخلد الحياة في الكائنات الحية ـ ألا ترى في هذا رداً على هيكل وجماعته من أن المادة جامدة لا عقل لها ولا تفكير فكيف تستطيع خلق الأنواع أو تكون أصلاً لها . .

أما ماهي الحياة فذلك مالم يدره إنسان بعد، ولما رأى موريسون الحياة تنتظم في الكون من الذرة إلى المجرة على وتيرة واحدة أعلن أن

الحياة ليست إلا أداة تخدم مقاصد الخالق سبحانه . . ولما درس بعض الكائنات الحية من أمثال إحدى العناكب المائية والتي تصنع عشها ـ على شكل منطاد ـ من خيوط بيته وتعلقه بشيء ما تحت الماء ثم يطلق تحته فقاعة هواء حتى ينتفخ العش وعندها تلد صغارها وتربيها آمنة من هبوب الريح في هندسة وتركيب وملاحة عجيبة .

ثم درس سمك السلمون الصغير ورحلته الطويلة وكيف يمضي سنوات في البحر ثم يعود إلى نهره الخاص به ، كما درس لغز ثعابين الماء التي متى اكتمل نموها هاجرت إلى مختلف البرك والأنهار ثم تروح قاطعة آلاف الأميال في المحيط لتصل إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا لتبيض وتموت ، فإذا ولدت صغارها عادت أدراجها إلى الشواطىء التي جاءت منها أمهاتها . .

ومن بين جميع الكائنات يقف الإنسان كأعظم نموذج خلقه الله وينتهي موريسون من تلك الأمثلة وأخرى غيرها إلى أن كل كفاية يملكها الحيوان ولا نملكها نحن إنما هي تحد لذكائنا . . . ونحن لا نزال ناقصي العلم حتى نستطيع أن نرد على ذلك التحدي ، فكيف تطور الإنسان من قرد وما تزال تلك الأحياء الدنيا تملك من الصفات والذكاء ما لا يملكه الإنسان ولا يقدر عليه مما ليس موجوداً فيه .

ونحن إذا فكرنا في الفضاء الذي لا يفتأ يمتد أمامنا ، وفي الزمن الذي لا بداية له ولا نهاية وفي الطاقة المقيدة في الذرة وفي الكون الذي لا حد له وفي الضوء والكهرباء والحرارة والمغناطيسية والجاذبية وسيطرة

قوانـين الطبيعـة على العالم . . إذا فكرنا في هذا أدركنا أننا لا نعرف في الحق إلا القليـل . . ويعلق بعـد دراسـة للقـوانـين التي تنتظم الحيوان والنبات وحتى أمواج البحار: «يبدو أن الغاية جوهرية في جميع الأشياء من القوانين التي تحكم الكون إلى تركيبات الذرة التي تدعم حياتنا . . وإذا آمنّـا بأن الإنسـان هو أهم مظهر في الكون، فإن الاعتقاد العلمي بأن جسم الإنسـان وجهـاز مخه ماديـان، قد يكـون سلبياً فإن الذرات والهبـاءات في المخلوقـات الحية تفعل أفعالاً مدهشة وحركة متوالية . . كل ذلك من روح الله الذي بثه فينا وليس من صنع الخلية الأولى التي زعمها هيكل.

وحدات الوراثة:

وفي بحث الخلية وما تحتويه من كروموزومات وجينات (وحدات الـوراثـة) والتي توصل العلم إلى معرفتها اليوم إجابة على أعظم حيرة وقف عندها علماء التطور فقد ثبت أن الجينات هي العامل الحاسم فيما يكـون عليـه كل كائن حي أو إنسـان، والكروموزمات هي التي تكون النُـويّـة المعتمـة التي تحتـوي الجينـة، والسيتـوبـلازم هي المـادة البر وتوبلازمية التي تحيط بنواة الخلية. وتبلغ الجينات من الدقة بحيث أنهـا ـ وهي المسؤولـة عن المخلوقـات البشـرية على سطح الأرض من حيث خصـائصهـا الفـردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها ـ أنها لو

جمعت لكـــان حجمهـا أقـل من حجم الكستبـان. . . هذه الجينـات البالغة الدقة هي المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنباتات»(٦٥).

فهذه الجينات هي التي تقرر هل الطفل سيشبه أباه أو أمه وليس هنـاك دليـل على أن هذا الشبـه تقرره البيئة السابقة للولادة وهو يصل إلى الكمال بحلول الروح والخالق عز وجل ـ لا الخلية المادية الصماء ـ رتّب ذلك ونظّمه فهو لا يسرّع بهذه العملية لأن الإنسان لا يفهمها أو لأنـه خلق عجولاً، والتطورات الجديدة تتوقف على الخواص الموجودة وعلى وجـود بيئـة ملائمـة، فالمصـادفـة والحادث ليس لهما سوى قليل دخل في التطور. . . إلا من حيث الاختلافات التي بين الوالدين التي تحد بالفـوارق التي تُورّث وقتئـذ. . ثم يتسـاءل موريسون: ما هي قوة التـوجيـه هذه التي للجينـات؟ إنهـا تتحكم في الخلايا والخلايا تطيعها طاعـة الجنـد لرؤ سـائهم. هذه الجينـات المحركة الفاعلة لا يمكن أن تكـــون نشأت عن أصـل جامـد وخليـة ماديـة كما زعمـوا. . . بل إن التـدخـل من الإنسـان في هذه الجينـات وتغيـيره ـ باستخدام الراديوم والأشعة الأخرى ـ لم يأت إلا بذباب عديم الأجنحة ونمل مشوه وشواذ مدهشة. . . والمعروف اليوم أن الحياة تأتي من خلية واحدة وليس ثمة من دليل يؤيد أية نتيجة أخرى، ويلاحظ أن جيمع طوائف الكائنات

---

(٦٥) العلم يدعو للإيمان ـ كريسي مورسون.

الحية منفصل بعضها عن بعض بهوّات سحيقة لا يمكن عبورها حتى أن كثيراً منها لا تلبث أن تفقد القدرة على التهجين مثلاً نسل الحمار والمهر هو بغل وليس للبغل سلالة فما هو تعليل أصحاب مذهب التطور في هذا وأمثاله . . لماذا استعصى البغل على أن يصعد إلى الأعلى بجنسه ليصل إلى إنسان كما وصل القرد حسب قولهم . . ؟

ولما كانت هذه الانفصالات قد حدثت في بدايات الحياة فإن كل مخلوق قد زاد تخصصه تدريجياً وفقد القدرة على العودة وعلى سرعة التكيّف من جديد ونظراً إلى ازدياد عدم المرونة أصبح كثير من السلالات مندثراً في حين بقيت الحياة بوجه عام ممكنة لغيرها .

والإنسان حيوان من رتبة الطليعة وتكوينه يشبه تكوين فصائل السيميا ـ الغوريلا والشمبانزي ـ ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيميائية (من القرود) أو أن تلك القرود هي ذرية منحطة للإنسان، تماماً كما لا يستطيع أحد أن يزعم أن سمك ـ القد ـ قد تطور من سمك الحساس ـ وإن كانا يسكنان نفس الماء ويأكلان نفس الطعام ولهما نفس عظام الجسم .

وفي مجال التباعد ما بين القرد والإنسان أشار موريسون إلى أن العلم بيّن الفرق مابين إبهام يد الإنسان وقدرتها على الإمساك بالعدد والأسلحة ويعد ذلك أصلاً لتقدم الإنسان وبين إبهام القرد والتي لا نفع لها، فهذا برهان قاطع على أن إبهام الإنسان لا يمكن أن تكون قد جاءت من إبهام قرود السيميا التي تعيش على الأشجار . .

كما دلل في ظاهرة التهجين نفسها كظاهرة خلق جديدة متطورة مثـل الكـلب السـلوقـي والكلب الأفطس الأنف، فإذا ربيت تلك الكلاب بعناية تبقى على صفاتها المكتسبة كما هي الآن . .

غير أنهـا لا تشـترك في التكوين العام للجسم وإنما تحفظ الشبه الكـامـل للنوع فأين هو التطور الذي انتقلت إليه تلك الكلاب وكيف يعقـل أن يتحـول ـ وقـد صار معـروفـاً لنـا اليوم علمياً دور الجينات في عمليـة الحفـاظ على الصفات الوراثية للآباء ـ كيف يعقل أن تتحول القرود إلى بشر. . . ؟

ويتابع عرض بعض الأمثلة : فالرجال لا تنمو لحاهم أقصر من قبـل لأنهم يحلقـونهـا ، والقطط التي بلا ذيول في جزيرة ـ مان ـ لم تتطور هكذا هناك لأن أحداً قد قطع ذيل قطة ، بل لأن جينة ما خاصة بالذيل قد فقدتها تلك القطط ، ولكن على الرغم من هذه القطط فإن القطط اللاحقة قد نشأت صحيحة دون تلك الجينة . .

ويعلق موريسـون على هذه الأمثلة «إذا كان التغيير للصالح ـ من بين الأحياء ـ فإن تلك التعديلات نراها تستمر، والإنسان المخلوق الـذي اعـتراه التغيير يُبعَد لأنه غير صالح لملاقاة الظروف» ولكننا نراه على الرغم من أنه غير صالح يستمر في الحياة ويطور نفسه وهذا نقض لمذهب النشوء والارتقاء .

ويبـين موريسـون نقص علم أصحاب هذا المذهب يومئذ «بأن القـائلين بنظـرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئاً عن

وحـدات الـوراثـة (الجينـات) وقـد وقفـوا في مكـانهم عنـد الخليـة الأولى . . . أمـا اليـوم فقـد حل لغز أيهما جاء قبل البيضة أم الدجاجة فالبيضـة ليست إلا غذاء للجنـين، وهي تحتـوي تلك الخليـة الفريدة التي لقيت عشيرها وحين تتحد الجينات التي بالخلايا وتنقسم فإن هذه الجينـات مع السيتـوبـلازم ترغم الآن على إنتـاج دجاجة تضع بيضة أخرى وهكذا . . .

والمادة بهذا الشكل ترى أنه لا غاية لها وليس لها غرض حتى في طاعتهـا الظـاهـرة للقـانون ولكن الحياة في كل مادة منظمة، لها غرضٌ محدد هو تكـوين شجـرة أو كرمـة، أو إنسـان، في اتفـاق تام مع خطـة مرسومة محددة بالجينات .

وهـذه الجينـات متفق على كونهـا تنظيـمات صغيرة للذرات في خلايـا الـوراثـة بجميـع الكـائنات الحية وهي تحفظ التصميم وسجل السلف والخـواص التي لكـل شيء حي وهي تتحكم تفصيلاً في الجذر والجـذع والـورق والزهر والثمر لكل نبات تماماً كما تقرر الشكل والقشر والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان[٦٦] .

فكيف يصـح أن يتحـول القـرد إلى إنسـان وتلك الجينات التي كشفهـا العلم اليـوم تحفظ التصميم وصفات الأجداد . . . وهذا دليل قطعي يثبت به موريسون استحالة تطور الإنسان من سلالة القرود . .

(٦٦) العلم يدعو للإيمان ـ كريسي موريسون .

فهو يقول «فهل حدث أن أعطت بعض تلك الجينات لقردٍ ما إنساناً» وأمامنا القرود نراها تلد قروداً والشمبانزي يلد شمبانزي شبيهاً له تماماً والفاصولياء تعطي فاصولياء، ولم نر حوتاً ولد سمكة ولا قمحاً أعطى شعيراً. . . والقانون يتحكم في التنظيم الذري «بالجينات» التي تقرر قطعاً كل تفرع من الحياة من البداية إلى النهاية.

فأين هو هذا التطور الذي يدعونه؟

لقد قال هيكل ذات يوم «أعطني هواء ومواد كيماوية ووقتاً وأنا أصنع لك إنساناً» ترى لمَ لمْ يفعل ذلك والمواد متوفرة له. . . ويعلق موريسون «لقد أغفل وحدات الوراثة وأغفل الحياة نفسها التي هي هبة من الله» بل أن موريسون ليعلق ساخراً من «هيكل» هذا:

لو أمكنه أن يصنع هذا الإنسان ويتصرف في تحويل الجينات إلى مراده ويمنحها الحياة وحتى في هذه الحالة المستحيلة، لكان سيأتي بوحش لا مثيل له ولو أنه نجح في إيجاد ذلك الوحش المشوه لما عزا ذلك إلى المصادفة وإنما يجعله ثمرة عقله الذكي. .

ثم يعلق موريسون على عظمة خلق الله وإثبات الخلق له وحده:

حقاً إن الله يخلق معجزاته بأساليب تخفى على الأذهان.

الفصل السادس
قضية التطور ـ الأهداف والمخاطر

هذه القضية الشائكة والتي شغلت الإنسانية أكثر من قرن ـ وما زالت ـ والتي حاول أربابها أن يدمغوا الجنس البشري بجنسية جديدة ما أظنهم يتقبلونها وهي جنسية القرود. . . والتي استغلها خلفاء دارون أبشع استغلال من أجل نشر الإلحاد في الأرض والتي كانت الصهيونية العالمية من وراء ذلك كله، ثم راحت لتعلن عن التطور في الدين والقيم والأخلاق لتفقد الإنسان من كل قيمة وكرامة وإنسانية حتى غدا الغرب وحكوماته أضعف من أن تصلح ما أفسدته هذه النظرية وما زرعته من بذور الفساد في كل القيم والمثل الأخلاقية. . . فما هو رأي الدين في هذا كله؟

لقد كان العلامة حسين الجسر من أوائل من تصدوا لنقد هذه النظرية ـ عند دارون ـ وعند خلفائه ـ وكتب فصلاً رائعاً في ذلك(٦٧) وانتهى إلى أن مذهب دارون عند ثبوته لا يتعارض مع أحكام القرآن ولا مع الإيمان بوجود الخالق يقول: «ومما ترى تجد أن الدين الحق لا

---

(٦٧) قصة الإيمان ـ الاستاذ نديم الجسر.

يضيق عن قبول حقائق العلم ولا يتعارض معها ولا يجمد أمامها، وكيف وهو الذي حث العقول على التفكير والبحث والتمحيص» فلكل عقل منتهى الحرية في أن يناقش ويحلل ويبحث ويصل إلى نتيجة، ولكن عليه قبل كل ذلك وبعده أن يأتي بالدليل والبرهان على قانونه الذي ارتآه.

فأصحاب مذهب النشوء والارتقاء ـ والمغالين منهم ـ الذين زعموا أن الإنسان أصله قرد مخاطبون بقوله تعالى: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ (سورة الأنعام آية ١٤٨)

وقوله: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. (سورة البقرة آية ١١١)

فإن عجزوا عن ذلك خوطبوا بقوله تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾. (سورة النحل آية ١٧).

وهكذا فميدان البحث واسع ومفتوح للجميع في الإسلام وليس هناك أي حَجْر على الفكر والعقل ـ كما فعلت الكنيسة ـ وقد كان صدر العلامة الجسر واسعاً وهو يناقش هذا المذهب بكل منطقية وعلم ويبيّن تهافت حجج هؤلاء الماديين والذين رأوا أن المادة الجامدة هي أصل الأنواع.

وهو يرى أن خلاصة النصوص القرآنية في الخلق أن الله تعالى خلق كل دابة من ماء وجعل من الماء كل شيء حي، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، وأنه خلق الأزواج كلها... وآيات الكتاب لا توضح هل تم خلق ذلك دفعة واحدة أو بطريق التطور (النشوء

والارتقـاء). ويعلق بكـل عقلانية واحترام للعقل الإنساني على مدى السنـين. وهـو يرى أنـه متى قامت الأدلة القاطعة على صحة مذهب النشوء وأصل الأنواع كان علينا أن نؤول ظاهر تلك النصوص القرآنية ونوفق بينها وبين الدليل القاطع.

نظـرٌ سديـد وفهم عميق لأهـداف الدين العظيمة مما يجعل هذا الـدين لا يتعـارض مع العلم مهـما تطـور الإنسان واخترع واكتشف، وتلك هي ميزة الخلود للرسالة الإسلامية، والصالحة لكل زمان ومكان..

ورغـم أن هذا الـرأي قد يتعـارض مع مجرد منـاقشـة آراء الـدارونيـين من أن الآيات تقص علينا أن الإنسان قد خلق في أحسن تقويم وأن السمة الإنسانية كانت ملازمة له منذ خلق الله أباه آدم عليه السـلام... إلا أن هذا لا يمنـع أن نناقش آراء العلماء ونضعها على بسـاط البحث وقـد أبـدى أستـاذنـا محمـد سعيـد البوطي رأياً حصيفاً يتعاضد مع رأي المرحوم الجسر إذ قال(٦٨):

«فلا يسوغ لنا بحال أن نتجاهل شيئاً من مضمون هذا الميزان ـ الذي تفسر به آيات الكتاب ـ بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿وقد خلقكم أطـواراً﴾ من أجـل أن المسألة تتعلق بنظرية التطور ومن أجل أن جمهرة علماء الأحيـاء يبحثـون فيهـا، وأنـه يوشك أن يأتي يوم تصبح فيه هذه

---

(٦٨) الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي.

النظـريـة حقيقـة علمية فإننا لو ذهبنا هذا المذهب لكان ذلك منا تحيزاً واضحـاً وخـرقـاً لشمـوليـة هذا الميـزان الـذي هو وحـده مدار الصحة والبطلان في تفسير أي نص قرآني».

وهـو يرد بهذا على الـذين فسـروا قولـه تعـالى: ﴿وقد خلقكم أطـواراً﴾ بنظـريـة النشـوء والارتقـاء ولم تثبت بعد... بل ان الأستاذ البوطي ليعلن بصراحة العالم الواعي الذي يعلم خلود الكتاب المقدس وأنـه أحـاط بكـل شيء مما قد توجده عقول البشر فيقول: «إنني ـ وقد آمنت بما يقـرره كتـاب الله عز وجـل من أن الإنسـان لم يتطـور خلال التـاريـخ من أي فصيلة حيوانية لا أجد إطلاقاً ما يمنعني من متابعة ما يقـولـه أصحـاب هذه النظرية ودراسة ما قد ينتهون إليه من بحوث في ذلـك كما أنني لا أجـد أي مسـوغ لحمـل النـاس على الكف عن هذه الدراسة والاعراض عما يقوله علماء هذا الشأن في ذلك»[٦٩].

ويروح يدلل بالسبب الذي يدفعه إلى هذا الرأي:

«ذلـك لأنني على يقـين بأن هذه المتـابعة ـ لآراء علماء التطور ـ ستـزيـد المؤمن بما يقـرره القرآن طمأنينة ويقيناً... وتساهم في تبديد أسبـاب الشك والجحود عند الآخرين إذا ماتحلوا بحرية الفكر والنظر، وسيعودون بعد تلك الدراسة ليقفوا تحت مظلة هذا البيان المعجز ﴿ما أشهـدتهم خلق السمـوات والأرض ولا خلق أنفسهم ومـا كنت متخذ المضلين عضداً﴾. (سورة الكهف آية ٥١)

---

(٦٩) نفس المصدر السابق.

لقد كان خلق الله للإنسان ضمن منظور آيات كثيرة، في نظام محكم بديع حكمته تلك الآيات وفسّره العلم كقوله تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون﴾. (سورة المرسلات آية ٢٠)

وآيات كثيرة تثبت خلق الله لآدم من تراب ثم سرى قانون الله بأن يتسلسل خلق الإنسان من نطفة من ماء مهين، وهو ماء الرجل مختلطاً بماء المرأة بعد تلقيح البويضة ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾. (سورة الدهر آية ٢)، وبعد لقاء الحيوان المنوي بالبويضة يتم لقاؤهما في الرحم وتتكاثر الخلايا لتتحول إلى إنسان سويّ. هذا الخلق هو الذي عرفه الناس منذ آلاف السنين وهذا هو القانون الذي كشفه لنا العلم اليوم، وصوره حتى صرنا نرى الحيوان المنوي وحركته بالعين وتطور الجنين وتقلباته.. بحيث لا يمكن لأحد أن يشك في هذا أو يبالغ فيه ليزعم أنه تطور عن قرد أو أنه صعد في سلم الرقي الذي سارت فيه الكائنات الحيّة فكان الإنسان آخرها... ولا ندري ماذا سيحدث له بعد ذلك في هذا السلم ومن الذي سيطيح به ويتسلم مكانه..

ورغم ثبات هذا القانون الإلهي في عملية الخلق فإن الله تعالى لم يغلق باباً للعقل والفكر في أن يبحث ويدرس على شرط أن يكون ملتزماً بالأمانة العلمية والوصول إلى الحقيقة وأن يأتي بالأدلة القاطعة على صحة ما يرى، بل ان القرآن الكريم كان يملك من الحرية وسعة

الصدر في هذا أن فتح باب النقاش على مصراعيه لكل إنسان ليناقش أدق قضايا الدين وهي قضية وجود إله أو عدمه أو أن لله ولداً أو شريكاً كما يزعمون، وقد تنزّل القرآن إلى عقول هؤلاء الباحثين مخاطباً لهم.. قل لهم يا محمد ﴿إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين﴾. (سورة الزخرف / ٨١)

فأين الحجة والدليل لديكم فإن لم يجدوا ذلك فإما أن يخضعوا لعظمة الله الواحد وإلا فهم ممن ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾. (سورة الأنعام آية ١١٦)

فما أعظم هذه الرسالة الخالدة وهي تساير هذا الإنسان في كافة تقلباته ورقيّه المادي والفكري والمعنوي وحتى وهو يعبر إلى النجوم الأخرى... وما تزال ترافقه في رحلته لتثبت له أن الله واحد وأنه مدعو إلى اقتحام هذا المجهول في هذا العالم بقوة وأمر من الله، كل ذلك لغاية نبيلة أرادها الله وهي أن يصل هذا الإنسان إلى الاعتراف بعجزه أمام عظمة الإله الواحد وتلك هي الغاية التي انعقدت عليها الكتب السماوية جميعاً.

ورغم أن هناك استحالة علمية في أن تجري حركة التطور عشوائياً من غير نظام أو قانون يحكمها فإن ذلك لا يمنع من دراستها وإبطال باطلها وإحقاق الحق فيها وقد أجاب موريسون وأبان أن «حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير وإنما الذي يتغيّر هو الصورة فقط»،

ومضى يضرب الأمثلة[٧٠].

نرى أن نزعة الطعام لم تتغير وإنما الذي تطور هو صورة الطعام، وأن نزعة اللباس واتخاذ المساكن لم تتغير وإنما الذي تطور هو صورة وشكل البيوت، وأن نزعة القتال والدفاع عن النفس فطرية لم تتغير وإنما الذي تغير هو صورة القتال..

وقال «إن التطور إنما هو في الصور والهيئات لا في الحقائق لأن الحقائق ثابتة لا تتغير، والفكر الإسلامي يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد العليا مع تطور الجزئيات والفروع. والفكر عامة يتطور ولكن يظل ثابت الأصول والمقومات متغير الصورة. ومثله الفقه يجري التطور فيه في الأحكام الفرعية دون الأصول وفي الشريعة أصول ثابتة لا تخضع لقانون التطور كالربا والزنى والحج والصلاة... وهذا يعني أنه في الفكر الإسلامي عنصران: أحدهما يمثل الثبات والاستقرار والآخر يمثل التحول والانتقال وأنه لا سبيل إلى إلغاء أحدهما ولا سبيل للقول بالتطور المطلق وإنكار عنصر الثبات بل لا بد من الارتباط بين العنصرين وإقامة التوازن بينهما، ومن المستحيل عقلاً أن يتوقف أحدهما أو أن ينفصل أو يستعلي ويسيطر فثبات أحدهما واستقراره هو الجمود والتطور المستمر هو الفناء، وإذن فلا بد من الترابط بين الجمود والحركة[٧١]...

---

(٧٠) مشكلات الفكر المعاصر ـ أنور وجدي.

(٧١) نفس المصدر.

الغاية من مذهب التطور:

لم يكن هذا المذهب يوم بدأه داروون وقبله لامارك إلا حلقة في سلسلة أشرفت عليها الصهيونية العالمية مستغلة العلوم في سبيل الوصول إلى أهداف دنيئة الغرض منها نشر الإلحاد وهدم الأخلاق وتحويل المجتمع الإنساني إلى مجتمع تضيع فيه القيم والإيمان ليتسنى لهؤلاء أن يقودوا العالم حسب تعاليم التلمود والتوراة المحرّفة.

وقد جاء في البروتوكول الثاني[٧٢]: «لاحظوا أن نجاح داروون وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل، وأن الأثر ـ غير الأخلاقي ـ لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي ـ غير اليهودي ـ سيكون واضحاً لنا على التأكيد».

ويرى الأستاذ أنور وجدي «أن الفكرة التي يعتنقها الداروونيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً اعتباطياً يتعارض مع الآراء الفسيولوجية الرصينة»[٧٣] وأكد أن داروون لم يورد في نظريته أن الإنسان يرجع في أصله إلى القرد وأن الذين زعموا ذلك هم غلاة الماديين الذين ألصقوا هذا القول بمذهب داروون، ونفى هكسلي تلميذ داروون هذا القول، كما أن الإجماع بين العلماء ـ لا الفلاسفة ـ أن

---

(٧٢) كتاب الخطر اليهودي ـ ترجمة محمد خليفة التونسي.

(٧٣) مشكلات الفكر المعاصر ـ أنور وجدي.

الحياة لم تحدث مصادفة وإنما حدثت بقدرة الله وإرادته .

وعلى رأس هؤلاء المزيفين للمذهب لامارك وهيكل الذي دعا إلى تأليه الطبيعة ومن ثم انتقل إلى مجال الاجتماع والفكر على يد هربرت سبنسر الذي حاول تطبيق هذه النظرية على العالم كله في كل مجال . .

إذاً فهذا المذهب هو واحد من أهم أهداف الفلسفة المادية الوثنية التي كانت تحاول السيطرة على الفكر البشري ، وتعمل على تفريغه من الإيمان والأديان والرسالات السماوية . وقد بدؤ وا تلك الحملة منذ عصر التنوير لإخراج الفكر الغربي المسيحي من كل القيم ودفعه إلى تيار المادية والذي يهدف إلى تدمير قوى الأديان والتوحيد والأخلاق . ومن ثم إلى تحطيم قواها التي تقف متماسكة في وجه الصهيونية . وقد قامت نظرية التطور بعد أن أعلن خلفاء دارون أن الأحياء كلها ولدت من خلية مادية صغيرة توالدت ذاتياً وارتقت الأنواع حسب قانون الانتخاب الطبيعي ، وهذا يعني أن كل شيء يتحول ويتغير ولا يبقى على حاله .

ولما لم يجد دعاة المادية والمتطرفون من خلفاء دارون البرهان العلمي على صحة أن الخلية تنمو ذاتياً وتتوالد ، حاولوا إقناع الناس بأسلوب لفظي كقول أحدهم : «ولكن لا بد أن الإنسان قد ترقّى صعداً إلى ماهو عليه الآن عن طريق التطور والارتقاء» .

ويتساءل أستاذنا البوطي ساخراً «من أين جاء اتفاقهم على لا بد هذه. . . » المؤكدة لفكرتهم دون تواجد الدليل والبرهان. .[74]

تعميم نظرية دارون على الدين والأخلاق والقيم:

وراحوا بعد ذلك يطورون مذهبهم في اتجاه آخر فإذا كان الأمر قد ثبت ـ عندهم فقط ـ أن أصل الخلية الأولى للكائنات هو المادة المتوالدة ذاتياً. فمعنى ذلك أن الإنسان متطور ضمن ذلك السلم، فما المانع أن تعمم هذه النظرية على كل ما له صلة بالإنسان من الدين والأخلاق والقيم؟ فقالوا إن كل شيء يتحول ويتغير ولا يبقى على حاله، وانتهوا بهذا إلى الدين يتغير ويتطور إلى اللا دينية حتماً، وهكذا قامت موجة الإلحاد التي كان مخططاً لها من قبل الصهيونية القائمة بناء على رأي علماء لا يشك أحد في مقدرتهم العلمية، والذين انتهوا إلى أنه لا إله في الكون.

وهكذا خرج الغرب عن دينه وكان من قبل قد زهدته الكنيسة به وجاءت الصهيونية ونسفت البقية الباقية من الإيمان عنده عن طريق غلاة دعاة مذهب التطور. . . وهكذا أعلن الإنسان رفضه لكل دين وقامت الحرب الطاحنة بل قل استمرت بين العلم والدين، إلى أن

(٧٤) الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي.

تراجعت الكنيسة عن رأيها وسمح لهؤلاء العلماء أن يبحثوا فكان مما توصلوا إليه مذهب النشوء والارتقاء والذي قضى على ما تبقى عند الناس من فضيلة وخلق وهدى، حيث خسر الإنسان كرامته بعد أن ألّه العلماء الطبيعة، وصار الإنسان يشعر وكأنه حشرة في هذا الكون لا قيمة له ولا دين ولا مروءة، وأن العلوم قد صادقت على أن أصله من قرد، فما أسرع ما يخجل من هذا الأصل الجارح لينحرف عن طريق الحق إلى طريق الضلال والشهوات، ثم جاء سبنسر ودوركهايم الصهيوني وأعلنا عن تطور الأخلاق وأنها متبدلة حسب الظروف، وهكذا قلبت أخلاق المجتمعات وتحولت الفضائل فيها إلى رذائل وراح الإنسان يتمرد ويستعبد ويقتل ويشنّ الحروب وهو يعتمد على أن هذا هو من باب الارتقاء ومن باب الجنس الأفضل وبهذا راح هتلر من أجل الجنس الألماني الأفضل يشعل فتيل حروب طاحنة وعمل الاستعمار على استعباد الشعوب وتم التمييز بين أبيض وأسود في القرن العشرين، قرن احترام حقوق الإنسان، وانتهكت القيم والفضائل حتى تحول الإنسان إلى ريشة في مهب الريح، وامتد المذهب إلى الأسرة فمزّق كيانها لأن الحياة متطورة متغيرة فلا داعي للإبقاء عليها، وبهذا هدمت التربية الأسرية وخرج الأبناء والبنات إلى الشوارع والأزقة والمراقص وضاعوا وسط عواصف الشهوات والخمرة والأفيون والكوكايين والتي عمل تجار على جلبها طالما أنهم سيجنون أرباحاً طائلة فيها . . .

وخـرجت المرأة وسط هذا التيار سافرة عارية وعملت على هدم كل ما تبقى من كرامة وهدى وصلاح، فانتشر الفحش والزنا واللواطة ومن ورائها الأمراض الجنسية الخطيرة وعلى رأسها الإيدز والذي صار شبح العصر والـذي يهدد بفنـاء أمم بكـاملهـا. . . وقـد نشـرت مجة أمـريكيـة أسبـاب رواج الفحشـاء وقبـولها وهي عوامل شيطانية ثلاثة وتعمـل جميعهـا على قتـل الخـير والفضيلة: «وهي الأفلام الخليعة في السينـما والتي لا تذكي إلا عواطف الحب الشهـواني، والأدب الفـاخـر الخليـع، وانحطـاط المستـوى الأخـلاقي عامـة، فإن نحن لم نحدّ من طغيـان تلك العـوامـل فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان والـذي أرودهم موارد التهلكـة»[٧٥]، وفي مقـال إخبـاري من جريـدة أخبار اليوم من استوكهولم لموسى صبري جاء فيه «إن السويد من أرقى دول الأرض مسـتـوى معيشـة فرغم أن الـدول قد أمنت كل شيء للشبـاب من البيت والصحـة والاعـانـات وقـروض الـزواج ومـع كل المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين الأسرة إلاّ أن الخط البياني لسكان السويد يميل إلى الانقراض وأن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله وما ذلك إلا لأن حرية الحب في السويد صارت نداء طبيعيـاً كنـداء الـوطن ونـداء العقـل ليس فيه ما يدعو إلى كبته، وإلى جانب هذه الحرية هناك حرية أخرى يتمتع بها أهل السويد وهي

---

(٧٥) الإسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب.

حرية عدم الإيمان بالله . . . وهي ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندينافيا. إن افتقادهم للإيمان يجرفهم إلى الانحراف وإى الإدمان على المخدرات والخمور(٧٦) . . .

وهكذا عملت نظرية التطور لدارون وعن طريق خلفائه من الماديين على هدم الدين والإيمان والأخلاق فتحولت المجتمعات الغربية إلى مجتمعات خواء من كل روح وفضيلة وخلق وعقيدة وإيمان. بل إنها اليوم وقد راح - الإيدز - يسري في دماء أبنائها تنتظر مصيرها الموعود، فهم إن لم يفنوا بالذرة فسينتهوا بالإيدز، وبهدمهم للفضيلة والدين ونزاعهم للفطرة السليمة التي فطروا عليها، ولقد حذر سبحانه وتعالى كل من يخالف طريقه ومنهجه بقوله: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ (سورة الأنعام آية ٤٥)

(٧٦) المصدر السابق نفسه.

الفصل السابع
المجتمع الغربي بين نارين : المخدرات والإيدز

عندما يتعمق الباحث في دراسة جوانب هذه الحضارة الغربية تجد أنها مغطاة ببريق ماديّ يخفي عيوبها، فإن بحثت عن داخليتها رأيت العجب العجاب وهالك المخاض الذي يدور في فلكه هذا المجتمع والمشاكل المستعصية التي تتحدى كل حلول الحكماء والعلماء والعقلاء في ذلك المجتمع فلا يجدون لها حلاً جذرياً على الرغم من كل الوسائل المبذولة، فإذا قارنت بين مجتمعاتهم ومجتمعاتنا أدركت أن الدين إنما كان رحمة للعالمين وخلاصاً للبشرية من كل ما يعترض سبيلها في الوصول إلى حياة كريمة.

آية عظيمة من كتاب الله كان لها قصب السبق في تنظيم حياة هذا المجتمع الإسلامي العريض والذي حكم يوماً ما نصف العالم بمبادئه وأخلاقه وعلومه . . .

والآية هي قوله تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ . (سورة البقرة اية ١٧٩)

ولما عمل المسلمون على تطبيقها عاش هذا المجتمع في أسعد حياة فلا قوي يعتدي على ضعيف ولا حاكم على محكوم ولا كبير على

صغير ، بل الكل ملتزمون بأوامر الله رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه ، وإذا كان الثواب وسيلة لدفع الناس وحملهم على تنفيذ أوامر الله ، فإنه في بعض الأحيان لا بد من تنفيذ العقاب وتطبيق الحدود كما أمر الله أن تطبق، من قطع يد السارق، ورجم الزاني أوجلده، وصلب أو نفي الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً . . .

وقد انتقد بعض الغربيين هذه الحدود وقسوتها وتبجّح البعض معلناً أن هذه وحشية وتشويه للإنسان ـ وأن حضارتهم لديها حلول زعموا أنها أرقى من حلول القرآن، وظنوا أنهم بهذا يسبقون الإسلام في رسم الطريق الأسلم والحل الأمثل ـ فراحوا يقترحون وسائل جديدة للصوص وللزناة وللمفسدين، وحلولاً رأوا فيها الخلاص، ولكن سنرى بعد قليل كيف آلت مجتمعاتهم تلك إلى حالة متردية ودروب مسدودة وضياع وحيرة قاتلة وأمراض ليس منها شفاء.

كان الإسلام بما رسمه من حدود إنما يتطلع إلى بناء مجتمع إنساني نقي من كل عيب أو مرض أو رذيلة، فهو دين عالمي وليس دين دولة أو أمة أو زمن. وبهذا المفهوم ينبغي أن تكون نظمه وقوانينه وحدوده ناظمة لحياة البشر في كل العصور، وتلك مهمة عجزت كل قوانين البشر الوضعية أن تقدر عليها، فكان أن رسم الله للناس جميعاً طريق الخلاص فكانت النبوات وآخرها نبوة سيدنا محمد ﷺ وشريعته خاتمة الشرائع وعلى هذا ينبغي أن يكون التشريع الإسلامي يتوافق مع كل تطور وتغيّر في حياة الأمم وعلى مدار الأزمنة، وبهذا كانت

الحدود في الإسلام صورة صادقة عن عالمية هذا الدين. خطّت طريق السعادة للمجتمع الإسلامي (الذي طبقها بحذافيرها فكان المجتمع المثالي الذي شاد أصول حضارة عالمية في الدين والأخلاق والقيم عجز الغرب اليوم أن يصل إلى بعض مظاهرها...

فعندما سنّ الإسلام قطع يد السارق لم يكن في هذا إجرام ولا إرهاب ولا تشويه للإنسان وإنما كان فيه الحفاظ على حقوق الناس وخاصة الضعفاء المعتدى عليهم وإقامة مجتمع العدالة والمساواة...

وهاهي ذي نظم الغرب أبدت رحمة للص في غير موضعها فسجنته فهل استطاعت وخلال قرن من الزمن أن توقف السارق أو تمنع السرقة والتعدي واللصوصية العكس هو الصحيح، خرج السارق من السجن ليسرق الدجاجة بدل البيضة وليسرق البنك بدل البيت، فهل وجدوا في حلهم هذا حلاً أرفع من حلول الإسلام؟

ولما لم يفهم أبو العلاء المعري منطقية قطع يد السارق لربع دينار بالمقارنة مع قطع يد السارق لخمسمئة دينار بقوله:

يد بخمس مئين عسجد وديت
ما بالها قطعت في ربع دينار

أجابه أحد الفقهاء:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذل الخيانة فأفهم حكمة الباري

وقال: «لما خانت هانت ولما تعففت كرمت...»

فإذا درست طريقة قطع يد السارق والشروط التي يجب أن تقطع بها والأدلة الواجب إثباتها عليه، عرفت أن الحدود لم تكن لتشويه الإنسان أو التمثيل به، وإنما كانت لردع هذا الإنسان عن طريق الشر، والحديث الوارد [ادرؤوا الحدود بالشبهات] وسيلة كبيرة لرفع التهمة عن السارق أو الزاني مما يترك أمامه الفرصة للتوبة والعودة إلى المجتمع إنساناً سوياً عمل على تربية نفسه بنفسه وأدرك خطأه بل وعرف احترام الدين له حيث عفا عنه القاضي أخذاً بشبهة وجدت في القضية. فإذا ثبت للقاضي قيام المتهم بما قام به من سرقة أو زنا ومن لسانه، حتى وفي هذه الحال كان الإسلام يحاول أن يدرأ عنه التهمة لقول النبي ﷺ: [ادرؤوا الحدود ما استطعتم] وقد حاول النبي ﷺ أن يدرأ التهمة عن ماعز عندما جاءه معترفاً بالزنا فقال: [لعلك لامست لعلك قبلت..] فقال يارسول الله زنيت فطهرني، ولأن تقطع يد سارق واحد أو سارقين في المجتمع خير من أن تروّع قرية بكاملها أو مجتمع بنسائه وأطفاله، وانظر تطبيق حد السرقة في الدولة الإسلامية كيف صار المسلم يرى اللقيطة وهي ليست له فلا يلتفت إليها حتى يرجع صاحبها فيأخذها... وقد تقول إنهم يخافون قطع اليد فأقول لك ومن الذي شرع قطع اليد، أليس هو الله، فهم إنما يستجيبون لنداء الله، وإن بدت صورة استجابتهم العملية خوفاً من القطع... وإلا فإنهم في كثير من الأحيان يمرون باللقيطة والمتاع ولم يرهم أحد... ورغم ذلك لا يقتربون منه، فلمن استجابوا هنا أيضاً وقد

أمنوا رؤية القاضي أو الشرطي لهم، أليست استجابتهم لنوازع الإيمان وقوة العقيدة في قلوبهم، وبهذا ضمن المجتمع الإسلامي حقوق كافة أبنائه من أن يعتدي أحد على أحد.

حصاد المجتمعات الغربية:

وعندما شرع الإسلام الزواج - وحرّم الزنا - ورتّب حقوقاً للمرأة وواجبات ورسم لها طريقها بنتاً كانت أو زوجة أو أماً أو أختاً، إنما كان يريد إقامة مجتمع إنساني طاهر عفيف يقوم على احترام المرأة واعطائها حقوقها، وبناء جيل مسلم يهيمن على الكون ويرشد البشرية إلى أقوم سبيل.

فكان في الزواج وسيلة لحفظ النوع الإنساني من جهة وكبح جماح الشهوة في نفس الإنسان من جهة أخرى.. أما الغرب فمنذ ظهرت شرعة الالحاد فيهم، وأعلنوا عن الحرية المطلقة وغير المحدودة بحدود للرجل والمرأة والأبناء، خرجت المرأة سافرة عارية مائلة مميلة تغري الآخرين وتدفع بهم في مهاوي الرذيلة بحيث صارت هي أرخص سلعة في المجتمع فتمرغت كرامتها في الطين وضيّعت نسبها ونسب أبنائها وجرّت المجتمع كله إلى هاوية رهيبة كادت أن تودي به...

إن العلاقات الجنسية غير المشروعة والتي أطلقها الغرب

ومنحها لهؤلاء الناس تحت شعار الحرية، حرية الإنسان، وإرواء الغريزة وشعارات أخرى، هذه العلاقات زيّنتها للشباب النفوس الحيوانية ورعت مسيرتها الصهيونية العالمية. منذ أواخر القرن الماضي فأعلنت - في بروتوكولاتها - عن عري فاضح وانحراف مخطط له لسير البشرية في تيار الخلاعة والإباحية ليتم لها قيادة العالم...

فماذا حصد هؤلاء من تلك العلاقات غير المشروعة؟ ضاعت الأسرة وضاعت المرأة وضاع الرجال واضطرب المجتمع وكان حصاد ذلك الأمراض الجنسية المتعددة فإذا كانوا قد استطاعوا مداواة «السفلس والتعقيبة» الناتجة عن الزنا، ثم ساروا في نفس الطريق متحدين أوامر الله غير آبهين بها ومخالفين فطرة العفة وشعور الكرامة في النفس، إذا كانوا فعلوا ذلك فإن الله قذف فيهم الأمراض الجديدة والوباء السرطاني الجديد - الإيدز - الغول الذي سيبتلع من ٤٠ - ٥٠٪ من شعوب بعض الدول خلال خمس سنوات، هذا الوباء الذي ليس له دواء إلا الموت لو استطاع أن يذوقه صاحبه.

إنهم يتحدون الله وقوانينه ويحاولون إصلاح أخطائهم وعيوبهم، يلهثون وراء حلول يتحدون فيها ما شرعه الله. ولكنهم ينسون أن الإسلام قد رسم الطريق الأسهل والأقصر لبناء الأمم الطاهرة العفيفة، الأمم التي تحترم نفسها وتحترم المرأة وتقدر أبناءها، الأمم التي تحيا حياة الزواج الشرعي والذي يتحرك فيه الجميع في ظل راحة نفسية ومعنوية.

إنهم يرون أن الرجم في الإسلام للزاني وحشية وهمجية، أما أن يقتلوا هم المـرأة مئـة قتلة بضياع شرفها وكرامتها وكرامة أبنائها، أما أن تضيـع الأنسـاب والـروابـط، وأمـا أن ترجم أمةٌ بكاملها فتتفشى فيها الأمــراض المستعصيــة والإيــدز والهــربيس فذلــك بنظـرهم ليس وحشية. . . أن يرجم الإسلام زانياً أو أكثر في أمة كثيرة العدد فينضبط الجميع بشرع الله ـ وهذا الذي حدث في زمن النبي ﷺ فلم يرجم إلا ماعـزاً والمـرأة الغامدية ـ فهذه عندهم وحشية وقسوة، أما أن تهلك أمة وأمم بكـاملهـا في الإيدز والأمراض الأخرى ويصبح أبناؤ ها في وضعٍ المـوتُ عنـدهم خيرٌ من الحيـاة فذلـك لا يعتـبر وحشيـة من الانسـان الغـربي، إنهم يتصـارخـون اليـوم من نتـائـج آثـامهم وعلاقاتهم غير المشـروعـة ورغم ذلـك لا يريـدون الاعـتراف بخطئهم وبسداد نظام الإسلام وتشريعه.

وخـلال القـرن التاسع عشر ظهر داروِن وفرويد وكارل ماركس وكـانت إيحـاءاتهم وتـوجيهاتهم كلها منصبة على تحقير الإنسان بشتى الطــرق مرة بحيــوانيتـه على يد داروِن ومـرة بوحله الجنسي على يد فرويد ومرة بضآلة دوره تجاه المادة على يد ماركس[٧٧].

كل هذه الإيحــاءات تركت أثــرهــا كذلـك على المـرأة وعلى العـلاقـات الجنسيـة بصفة مميزة وراحت تطلق للرجل والمرأة الحرية في

---

(٧٧) الإسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب.

تلك العـلاقـة، وراحـا يتلمّسـان الشهـوة واللذة لذاتها وحتى الهدف الحيواني من حفظ النوع والنسل لم يعد الناس في أوربا وأمريكا ينظرون إليـه إلا على أنـه قيـد يحد من حريـة الاختـلاط الجنسي، ولم يعـودا يتحمـلان تبعـات هذه العـلاقات فعمدوا إلى التخلص من آثار اللذة بموانع الحمل والإجهاض. .

ترى كيف يرون الـوضـع الآن وقـد تفشّت الأمـراض الجنسية حتى صارو الـواحـد منهم عنـدما يود الزواج الاعتيادي وحتى صارت الفتـاة أيضـاً كل منهم يسأل صاحبـه: هل عنـدك إيـدز؟ فاذا لم تلتزم الأفـراد والأمم سبيـل الله فيـها أمـر بالكلمـة الطيبة فستضطر أن تلزمه مكرهة وبعصا إلهية تسوقهم إليها.

وهـاهي السـويـد أرقى بلاد الأرض حريـة كما يقـولون، حرية الحب والاستجـابـة لنـداء الجنس فرغم كل الإعانات والضمانات التي تقـدمهـا الدولة للشباب نجد أن نسبة الطلاق فيها أكبر نسبة في العالم والقـانـو لا يضـع عقبـة أمـام الطلاق حتى قال صحفي نرويجي: «إن مستقبل شباب اسكندينافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان».

الخمرة ذلك الداء العضال:

وقد واكب خروج الناس في الغرب عن قانون الله، في اللقاءات غير المشـروعـة واكب ذلك انتشار الخمور والمخدرات بأنواعها المختلفة

وقـد قامت منظمـة الصحة العالمية بإجراء دراسة حول مشكلة الإدمان على الكحـول وقـد جاء في تقـريـر الجمعية السنوية التابعة للمنظمة: «ان درجة عالية من النجاح في الامتناع عن شرب الخمور دامت طوال أربعة عشر قرناً في البلدان التي تدين الإسلام، وإن السياسة الوحيدة النـاجحـة التي استطاعت منظمة الصحة العالمية العثور عليها في مجال مكـافحـة الإدمـان كانت تتمثـل في الإسـلام الذي يحظر شرب الخمر رسمياً وبصورة باتة قاطعة».

وتقـول الـدراسـة: «إن منظمة الصحة العالمية لم تستطع العثور على إجـابـة مقنعـة حول الـدوافـع التي تهيب بالناس إلى الإفراط في تنـاول المشـروبـات الكحـولية مع كل ما يعرفونها من مضارها، كما أن المنظمـة تجد نفسهـا في حيرة حيـال الـوسـائـل الفعالة الناجمة لمساعدة المدمنين وتخليصهم من هذه الآفة»[(٧٨)].

وفي الولايات المتحدة الأمريكية ما يقارب عشرة ملايين أمريكي يعانون من الإدمان وهذا يسبب كل عام /٢٥/ ألف حالة وفاة، وقد قامت الـولايـات المتحدة بمحاولة جادة لحل مشكلة الإدمان فما كانت النتيجـة؟ في عام ١٩١٩م أصـدر الكونغرس الأمريكي قانوناً بتحريم الخمر سراً وجهراً ومنع بيعها واستيرادها وتصديرها وفرضت العقوبات الشـديـدة على المخـالفـين ونشـرت الكتب لتـوعيـة المواطنين وكانت

---

(٧٨) مجلة طبيبك أيار / ١٩٨٣.

النتيجـة: انتشـار آلاف الحـانـات السـريـة وازدياد عدد شاربي الخمر أضعـافـاً وسجن حوالي نصف مليـون شخص وصـدر أمـر بإعـدام / ٢٠٠ / رجل من المجرمين بسبب الخمر وزادت جرائم القتل ٣٠٠٪ . . وكـل ذلـك دفـع الحكـومـة إلى إعـادة النظـر في القـانـون وقـرار الكونغرس عام ١٩٣٣ إلغاء قرار حظر الخمور[٧٩] . .

وقال صموئيل ميل في كتابه «قراءة حول الكحول»: «إن القرار قد ألغي على أسـاس واقعي أن المنـع قد فشـل وبـذلـك انتهت أكبر محاولـة تقـوم بها حكـومـة دولة جديدة، انتهت بالفشل الذريع في حل مشكلة الإدمـان. وكـذلك باءت بالفشل كل محاولات الدول الأخرى في حل المشكلة ولم ينجح في حلها سوى الإسلام».

نعم الاسـلام وحـده هو الـذي نجـح في حلها فعلى الرغم من جاهليـة العـرب وتعلقهم بالخمـرة وعلى الـرغم من قلة وسائل انتشار المعرفة قياساً بأمريكا فإن الإسلام استطاع بعد زرع العقيدة في القلوب وبالتدريج، استطاع أن يخلص العرب والأمم الإسلامية من هذه الآفة ولمـا نزلت آيـة التحـريم للخمـر ﴿يـاأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ قام المسلمون إلى دنان الخمـر فأراقـوهـا حتى سالت طرقـات المـدينة بها. . إنها العقيدة التي تعطي قوة الإرادة والعـزيمـة الصلبـة وليس سيف القهر والسجن، إنه

(٧٩) كتاب «مع الطب في القرآن» ـ د. عبد الحميد دياب ود. أحمد قرقوز.

القناعة الداخلية الممتزجة بقوة الإيمان والتي عملت على تطهير النفوس من أدرانها وعملت على بنائها من جديد، وإذا كانت أمريكا بكل الوسائل التي تمتلكها لم تستطع منع الناس من شرب الخمرة مما اضطرها إلى السماح بها من جديد، فإن الإسلام وحده إذا استجابت له الأمم قادرٌ على أن يخلصها من سمومها وآفاتها.

المخدرات . . . الوباء القاتل:

أما المخدرات فحدّث عن ذلك ولا حرج، لقد صار الكيف والحشيش والأفيون والكوكائين والهيروئين . . . مشروب ملايين الشباب في الغرب لدرجة أن علماء الصحة والنفس يكاد ألّا يجد حلاً للخلاص من أضراره وإنقاذ هؤلاء الشبان . . ولدرجة أن الرئيس الأمريكي رصد لهذا العام ١٩٩٠/ عشرة مليارات دولار لمكافحة المخدرات . . ورغم ذلك فإن ظاهرة انتشاره ومن قبل التجار المستفيدين والعصابات المتمرسة في تهريبه ما تزال في تصاعد مستمر وتنبىء عن استحالة الغرب إيقافه أو منعه وإليك الدليل عما جرى عام ١٩٨٩/ «فقد جاءت نتائج المداهمة والمصادرة ـ للمخدرات ـ في كل من إسبانيا والبرتغال مذهلة . . وقد دلت على أن الكميتين المصادرتين كانتا من بين كبرى الكميات المصادرة في أوربا الغربية على الإطلاق وبهذا أصبحت شبه الجزيرة الإيبيرية المركز الأوربي

للمخدرات غير المشروعة»[٨٠].

وعن سبب دخـول ـ إيبـير يـا ـ عالم المخـدرات ذكروا «أن ذلك يعـود إلى عام ١٩٨٣ عنـدمـا عدّلت الحكومة الإسبانية الجديدة قانوناً يعـود إلى العهـد السـابق (فـرانكـو) بحيث صار القـانون يعتبر حيازة أصغـر كميـة من المخـدرات القـويـة أو الخفيفـة جريمة عقابها لا يقل سجنـاً عن /٦/ سنوات فبإلغاء صفة الجرم عن حيازة كميات صغيرة مخصصـة للاستعـمال الشخصي ، فتـح التشـريـع الجـديـد مسـارب الفيضـان ، أمام دفق المخدرات على اسبانيا والبرتغال»[٨١]. وبحيث صار الهم الأكـبر للبـوليس الـدولي «الأنـتر بـول» هو دور شبه الجزيرة الإيبـير يـة الجـديـد كمعبر رئيسي ومخزن للكوكايين الآتي من أمريكا الجنوبية والمتجه إلى السوق الأوربية . . . وقد بلغ انتاج الكوكايين في أمـريكـا الجنـوبية رقماً قياسياً /٤٥٣/ طناً مما دعا إلى إتخام السوق في الـولايـات المتحـدة وأدى ذلـك إلى انخفاض سعر الكيلو إلى ما دون عشرة آلاف دولار.

وفيـما تضاعفت جرائم المخدرات مرتين في ألمانيا الغربية وثلاث مرات في فرنسـا منـذ منتصف السبعينـات[٨٢] حاولت السـويد معالجة المشكلة المتفـاقمـة واستطـاعت أن تخفف من انتشـارهـا بمؤ سسـاتها

---

(٨٠) مجلة المختار باللغة العربية ـ أكتوبر ١٩٨٩ .

(٨١) المجلة نفسها .

(٨٢) مجلة المختار شباط ١٩٨٩ .

الاجتماعية إلى ٤٠٪ .

إن ظاهرة المخدرات وباء قاتل وهو مشكلة الشعوب الغربية في عصر الفضاء والعقل الآلي ولن يستطيعوا التغلب على هذه الظاهرة تماماً كما فشلوا في الخمر، فالمشكلة ليست مشكلة حضارة ورقي مادي فقط، المشكلة مشكلة خواء روحي ونفسي مني به هؤلاء الشبان، هذا الفراغ النفسي لا يسده إلا الدين والعقيدة، والعقيدة غير موجودة فكيف يمكن التوصل إلى حل . . . وسيظل الغرب في حيرة قاتلة وستظل هذه المخدرات تحصد من أبنائه ما تحصد حتى يذعنوا إلى أمر الله ويخضعوا لحلول الإسلام في تنفيذ حدود الله التي أمر بإقامتها والتي طبقها المسلمون فنجحوا . . .

إن الإيمان الصادق والعقيدة الثابتة هما اللذان يهبان المرء صلابة العزيمة وقوة الإرادة في تحدّي النفس وشهواتها ويحولان بينها وبين تعاطي أي مشروب كحولي أو مخدر ـ وفي الشعوب الإسلامية وانصراف أبنائها عن ذلك أكبر دليل ـ وما لم يهيّأ الإنسان في الغرب بالدين والعقيدة فإن كل الحلول ستظل من قبيل ذرّ الرماد في العيون .

وعود على بدء نقول لأولئك الذين رأوا في حدود الشرع وتطبيقها وحشية وقطع للأيدي ورجم للأجساد نقول: أليس أن يجلد شارب الخمر أو يرجم الزاني فيتربى المجتمع كله ويحيى سليماً معافى، أليس هذا أفضل بكثير وبألف مرة من أن ترجم أمة بكاملها وشعوب بالإيدز والهربيس والسرطان والأمراض المتنوعة والتي تحصد من أبنائها

كل عام ما تحصد، والتي حولت المجتمعات هناك إلى حرب عصابات بين الشـرطـة وتجـار المخدرات بحيث يعيش الناس وكأنهم على بركان ... وصدق الله إذ يقول:

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾. (سورة هود آية ١١٢)

الفصل الثامن
الشيوعية . . . مسار تصحيح أم نهاية عهد

. . . . وذكِّرهم بأيام الله . . . . لطالما رفع مفكرو الإسلام عقيرتهم في مواجهة النظام الشيوعي ونقدوا الفكر الذي التزمه والمبادىء التي راح يطبقها، وأثبتوا عدم صلاحيتها لبناء المجتمعات الإنسانية رغم كل التطور الذي آل إليه المجتمع السوفياتي ورغم كل حضارة قطع أشواطها إلا أن الأمم لا تقاس عظمتها ببناء مادي أو صناعي فحسب بل هناك أسباب ودوافع أخرى أعظم أثراً في بقاء الأمم. ولكن كان تمزق العالم العربي والإسلامي يومئذٍ أكبر من أن يدع لأصوات هؤلاء العلماء مكاناً، وإلى جانب هذا كان هناك سبب آخر ثبّت دعائم الشيوعية وهو النجاح الظاهري الذي سلكت به ثورة ماركس ولينين وبريجنيف، طريقها في ميدان الزراعة والصناعة والفضاء . . .

ولعلك تعجب أن كثيراً من مفكرينا ـ وحتى اليوم ـ مازالوا يأملون في هذا النظام خيراً أو أنه بإمكانه أن يحل مشاكله ـ في الوقت الذي فقدت فيه قاعدة بناء المجتمع السليم، من الحرية

والـديمقـراطيـة . مصيبتنا في العالم العربي أننا لانقتنع ولورأينا الدليل الـواضـح أمـامنـا . . . لأن عمى اعتقاد المبادىء الباطلة قد ران على قلوبنا أو أن العناد والتحدي يمنعنا من أن نتراجع إذا وضحت الحقيقة حيث لا نملك نزاهـة العـالم للاعـتراف بالخطأ ، لقـد قرأت في إحدى النشـرات الأدبيـة الأسبـوعيـة أن أحـد مفكـرينـا الكبـار راح يخاطب غوربـاتشـوف بعيـد إقـدامه على خطواته الإصلاحية قال ذلك المفكر «إننا نسير خلفك منذ عشرات السنين فما هذا الذي فعلته . . . » وكأنه عزّ عليـه أن يقـدم غوربـاتشـوف على خطـوتـه تلك والتي دفعته إليها الأوضـاع المـترديـة في بلده . . . فانظر ـ يارعاك الله ـ كيف صرنا نبدو وكأننا نُساق كالأغنام ليس لنا رأي في الحياة والنظم ولم نعد نملك هذا التميّـز الفكـري المنطلق من ذا تيّتنـا وكيف أننـا مازلنـا نسـير وراء كل ناعق . فمن ذا الذي يستطيع أن يثبت ـ وقبل خطوة غورباتشوف ـ أن النظام الشيوعي كان صالحاً كل زمان ومكان على الرغم من أنه احتل ثلث سكان العالم تطبيقاً ومنهجية . . .

وإذا كانت أخطـاء الأفـراد قد لا تبـدو للقضـاء أحياناً إلا على مدى سنين . فأولى بأخطاء الأمم تمتد طويلاً إذ هي تمتلك من وسائل القوة والسلطان ما تخضع به الأفراد وتقنعهم بأفكارها . . .

فإذا جاء صاحب الفكـر الشيوعي اليوم ـ غورباتشوف ـ وأعلن عن حملتـه الإصـلاحيـة فهـذا يثـير عندنا الحزن والأسى بل بلغ الحد بذلـك المفكـر العـربي أن يقـول «ما كان أملنا بثورة ماركس أن تنتهي

هذه النهاية» ونقول لهذا المفكر وماذا كنت تأمل من هذه الثورة أن تحتل العالم بالأفكار التي قامت عليها والتي أوجزها رئيس تحرير مجلة العربي الدكتور محمد الرمحي[٨٣] : «التخطيط المركزي ـ الدولة المتسلطة ـ الحزب الواحد ـ غياب المجتمع الأهلي ـ عبادة الزعيم» .

إن كل مبدأ من هذه المبادىء كفيل بأن يزعزع النظام نفسه، ولكنه ظل صلباً طوال السبعين عاماً الماضية بسلاح القوة والضغط . . .

إن التدبير المحكم الذي خططته الصهيونية يوم قلبت النظام القيصري ورفعت الصهيوني ماركس على رأس الدولة ـ كان تدبيراً مخططاً له بحيث لا يدع مجالاً للنقد أو الاعتراض وهكذا سارت دولة بكاملها ضمن عبودية جديدة هي عبودية الفرد الذي هو على رأس الدولة مستخدماً أقسى سلاح ـ القوة والقتل ـ وعهد ستالين حافل بهذه الأمثلة التي تخجل التاريخ .

لقد سبقت الامبراطورية الرومانية هؤلاء في عبادة الأفراد حيث كان القياصرة يرغمون الناس على عبادتهم والسجود لهم، مما أدى برجال الدين المسيحي ـ بعد أن يئسوا من إصلاحهم ـ للّجوء إلى العزلة والرهبانية، ترى من كان يظن يومها أن الأمبراطورية الرومانية على امتدادها الشاسع وحضارتها ستزول وتقضي عليها أو على معظمها دولة الإسلام في معركة اليرموك وخلال خمسة أيام فقط .

---

(٨٣) مجلة العربي العدد ٣٧٥ ـ افتتاحية العدد ـ د. محمد الرميحي .

أين الخطأ:

إن الحـريـة ميراث إنساني ومنحة إلهية تستطيع أن تغتصبها من البشـر أيـاماً وسنين ولكنك لا تستطيع أن تمنعهم أياها أبداً، إن فعالية التاريخ وحركيته بدت الآن أسبق بكثير من كل تخطيط القادة والزعماء.

ضاعت حريـة الفـرد وسلبت وكان قد عمل على ذلك من قبل رجـال الكنيسـة ثم بدت على يد بعض علماء الإلحـاد والـذين وضعوا الدين وحتى الإله على الرف، ثم كان ما كان من استدراج الصهيونية لبعض علماء الاجتـماع كدوركهـايم ـ وبعـد استبعاد فكرة الإله ـ فراح يدعـوا إلى تأسيس «دين البشـريـة الكـوني» أو «الكليانية الاجتماعية» بحيث يؤله المجتمع نفسه(٨٤) ويعلق دوميناك على هذا الدين الجديد «أليس هنـاك خطـر من أن تصبـح النـزعـة الاستبـدادية القائمة على العرق أو على الطبقة الاجتماعية هي أساس الارتباط الشعبي والتأليه الذاتي؟ إذ حتى تقديس الشعب قد يؤدي إلى الاستبدادية والفاشية وقد عرفنا تجارب مريرة من هذا النوع في تاريخ أوربا الحديث».

فأنت بإزاء نظـام يدّعي الحـريـة ثم هو يعمـد إلى تجريدها من الفـرد ليلزم بها الجـماعة بحيث اختلطت الأمور وسط الجماعة وضاعت

---

(٨٤) كتاب مقاربات الحداثة لدوميناك ـ ملخص الكتاب في مجلة الوحدة العدد ٥١.

الحرية ولم تعد تعرف من المسؤول عنها فإذا سألت قيل إنه الحزب، إنه رئيس السلطـة، إنـه رئيس الدولة . . . وهنا جمدت النظم والقيم لأن الآراء لا تتفاعل ضمن هذا النظام ليتم دراسة الخطأ من الصواب بل صارت بقيـة آراء أعضـاء القيـادة الحزبية تسير في مواكبة آراء القائد أو رئيس الدولة، فتسكت عن عيوب النظام ولا تستطيع البوح بها وهكذا تفاقمت الأمور ولم يعد بالإمكان تقدم الدولة . . . إلا بتصحيح جديد - وتلك من أفدح أخطاء النظام الشيوعي.

وبهذا ترى أن خطوة غورباتشوف خطوة جريئة بعد تحكم النظام في مسيرته الطويلة ضمن أطر ومواقف ومبادىء - سكت الراحلون عن تصحيحها لعدم تواجد فرصة السماح ببث آرائهم وللمصير الذي كانوا سينتهـون إليـه - وحتى رئيس الـدولة غورباتشوف نفسه لا يستطيع أن يبوح بكل ما يريده من إصلاح في هذا الوقت وعلى حد قول الرميحي[٨٥].

«إذا كانت هذه المفردات (التخطيط المركزي - الحزب الواحد - مفـردات مفهـوم الـدولة اللينينية) لا يمكن أن تمس في الوقت الحالي في الاتحـاد السـوفيـاتي بسبب سخـونـة خطوات التغيّر وبُعد نتائجه عن الظهـور للجـماهـير في هذه الفـترة وبسبب تواجـد - الحـرس القديم - الـذي يعـد هذا التراث تراثاً شخصياً ومجتمعياً له، يجب ألا يمس فلا

---

(٨٥) مجلة العربي العدد ٣٧٥ افتتاحية العدد للدكتور محمد الرميحي.

بأس من التحـرك في أوربـا الشرقية كما فعل غورباتشوف ومعاونوه» من محاولة الاشارة والتلميح إلى دول حلف وارسو «إن لم تواكبوا التغير فإن مصير بعضكم سيصير إلى مصير القادة الجامدين الذين أطيح بهم».

وعلى الـرغم من صعـوبة الخطوة وتعلق دول حلف وارسو بهذا النظـام، وفقـدان ماء الـوجـه أمـام الـتراجـع في التطبيق عن الأفكار المعهـودة، رغم كل ذلـك لم يمنـع هذا غوربـاتشوف من الإقدام على خطـوتـه، وهي خطـوة متعقلة في سبيـل إيجـاد حلول أكثـر مرونة لحل الـواقـع المـريـر الـذي يعـاني منـه الاتحاد السوفييتي اقتصادياً ومنهجية وتسْييسـاً، فالمشـاكل متفاقمة وقدم الزمن جعلها متشابكة بحيث كان الـوصـول إلى حل لها ـ قبـل غوربـاتشوف أقرب إلى المستحيل، فإذا عرفت أن تلك المشـاكـل تمس بنـاء الـدولـة كنظـام «وتخلف الاتحـاد السوفييتي في هذه الفترة عن مواكبة العالم، وأن النقد انصبّ على نقد الممارسـات السلبيـة والفساد السياسي والتلف في النظام الاقتصادي، والتـدخـل غير المـبر ر في شؤ ون دول أخـرى(٨٦)، إذا عرفت كل ذلك أدركت صعوبة البحث عن حل، وعرفت جرأة غورباتشوف في صدع هذا النظام المطوق بأسلاك الحديد عبر أكثر من سبعين عاماً.

فليس من السهل أن تبني قصراً في سنين متطاولة ثم تضطر إلى نقضـه في آخـر الـوقت بعد أن عرفت أن أساسه بني على ملح، وسواء

---

(٨٦) نفس المجلة..

أكـان الخطأ في طبيعـة ذلـك النظـام أو في تطبيقه أو في أمراض التطبيق (الجمـود أو البـير وقـراطيـة) فإن الـدكتور الرميحي «يرى أنه قصور في القـدرة السـوفيتيـة ـ مركـز النظام ـ على الاحتفاظ بالمكانة نفسها التي يمثلها النظـام في نفـوس الكثـيرين، إنـه الصعـوبـات الاقتصـادية والتنظيمات السياسية، إنه الخبز والحرية»(٨٧).

لقـد بدأت خطوات الإصلاح بمراجعة، ثم قادت إلى احتمال كف يد الحـزب الشيـوعي والـدولـة عن التصـرف بمفرده، ثم حقوق القـوميـات ثم الملكيـة الخـاصـة ثم حريـة الأفراد، إنها متغيرات تفرز متغيرات جديدة . . . وهذا يعني أن القاعدة الأساسية التي بني عليها النظـام فاسـدة، وعـد معي إلى بروتوكولات حكماء صهيون لترى أن الصهيـونيـة هي التي عملت على زراعـة هذا النظـام ودفعت بماركس على السطح وقادت هذا النظام ليقف في وجه الدين ولنشر الإلحاد من أجـل هدف الإطـاحـة بالنظم الانسـانيـة بصـورة نظام أو كيان مادي اقتصـادي ـ ومن وراء ذلـك تدمـير أخـلاقيـة الإنسـان وكرامته . . . وهـاهي الأيـام تكشف وبعـد عناء طويل مداخيل هذا النظام والقشة التي تقصم ظهر البعير . . .

لقـد كان الحـاجب الـذي حجب أخطاء ذلك النظام شيء من القـوة والاستبـداد، وغشاوة من التقدم والرقي والرفاهية التي لوحوا بها

---

(٨٧) مجلة العربي العدد ٣٧٥ د. محمد الرميحي .

للشعب في صورة مؤسسات ومجالات علمية وتكنولوجية ظاهرها فيه الرحمة وباطنها قد نزعت منه القيم والأخلاق والدين، ظاهرها الحرية للأفراد وباطنها قيادة جماعية تضيع فيها المسؤولية وديست وسطها حرية الفرد وسحقت فلم يعد له صوت إلا أن يقول نعم . . .

مفهوم الحرية في الإسلام:

إن الإسلام هو الذي أرسى دعائم الحرية والديمقراطية والشورى والعدالة فلا رأي لحزب واحد وإنما الرأي كل الرأي للشعب بل وللحق الذي يتجلى في رأي أي فرد، بل إن الديمقراطية نفسها كمبدأ متعارف عليه والذي هو الآخذ برأي الأغلبية في الأمة نرى أن الإسلام تجاوزه إلى مدى أبعد وأرقى هدفاً وغاية وتطبيقاً، تجاوزه إلى الاعتراف بالحق والحقيقة وإن كان صاحبها أدنى هذه الأمة منزلة أو أضعفها قدرة، فليس في الإسلام الرأي للأغلبية ـ وإن كانت هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة ـ ولكن الرأي للحق أينما وجد ولو على يد طفل أو امرأة. ألا ترى يوم وقف عمر على المنبر ليحدد مهور النساء ـ وقد وافقه كل الصحابة والمسلمون ـ ألا ترى كيف عارضته امرأة قائلة: ليس لك ذلك يا بن الخطاب، قال: ولم، قالت: ألم تسمع قول الله تعالى ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . . . ﴾ أتدري كم القنطار ياعمر؟

موقف رائـع يتجـاوز منطق الـديمقـراطيـة نفسهـا ويعلو فوقها بدرجات، أدركت فيه المرأة مفهوم الحرية في الإسلام فوقفت تعترض وتحتجّ ومعها الدليل والبرهان، ويكتمل هذا المفهوم الرائع بردّ الخليفة مذعناً للحق الذي وضح على لسان امرأة من أوساط المجتمع وكانت كلمته الخالدة «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

هذا المفهـوم وبهـذه الحـريـة لن تستطيع كل نظم وديمقراطيات العـالم أن تصـل إلى مستـواه، امـرأة واحـدة تعـارض وحدها البرلمان والمجلس النيـابي وقـائد الدولة ومستشاريه!! ولكن لما كان الحق معها خضـع الجميـع للحق لأن الحق أحق أن يُتّبـع ومن هنـا قالوا: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال. لأن الرجال تتغير والحق لا يتغير.

هذا هو المبدأ الذي جعل من الخليفة إنساناً يشاور الآخرين فلا يستبدّ برأي وقد كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في أكثر من قضية.

وأما حرية الأفراد فلقد خلق الله الناس أحراراً وما كان يجوز في عرف الدين أن تنتزع حرية واحد منهم ظلماً وزوراً حتى ولو كان الظالم قائـداً أو رئيسـاً أو ابن فاتـح مصـر عمرو بن العاص. وليس بعيداً عنا محاكمـة الخليفـة عمـر لعمـرو بن العـاص وابنـه في خلافه مع القبطي فلطمه ابن عمرو قائلاً: اتسبقني وأنا ابن الأكرمين، وكان القبطي قد تراهن معـه في سبـاق فسبقـه، وعنـدما اقتص عمر للقبطي قال كلمته التاريخية مخاطباً فاتح مصر عمرو بن العاص:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»

فأي نظام في الكون وفي هذا القرن استطاع أن يصل إلى مثل أولئك الرجال في عدالتهم وحريتهم ونظام دينهم . . . .

القيادة الجماعية في النظام الشيوعي ضيعت حرية الفرد ضمن حرية الجماعة فضاعت المسؤولية وغرق النظام في أخطاء متتالية ولا أحد يدري من المسؤول وتفاقمت حتى آلت إلى ما آلت إليه من فوضى وفساد.

وعبادة الزعيم في ذلك النظام تذكر ببقايا نظام قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وهي تُقوقِعُ الأمة كلها في رأي واحد فلا تدعها تتحرك إلا ضمن هذا المنظور خطأ كان أو صواباً. وإذا كانت الدولة بمصالحها المتعددة والمتشابكة بحيث تعجز الحكومة كلها عن إصلاحها فأولى برأي القائد وهو رأي وحيد ـ وإن كان محنكاً ـ أن يقع في أخطاء بل ويتورط في بعضها ليؤدي بالأمة إلى الهاوية، وبمثل هذا زالت امبراطوريات كان لها امتداد واسع في الأرض.

قرأت ذات يوم كلمة لأحد الكتاب في مجلة العربي مضمونها: أن الأمة التي لا يقودها إلا حزب واحد ورأي واحد لا يمكن لها أن تنجح أبداً.

إن العالم اليوم يتحرك بكافة نظمه ومذاهبه ويتململ محاولاً التغيير ولن يكون هذا التغيير ـ إذا كان صالحاً لنجاح الأمم ـ إلا ملتقياً مع الدين وأهدافه.

فالـدين لا ينفـرد فيه رئيس الدولة برأي وحيد، وليس فيه عبادة الـزعـماء، ولا حتى الأبطـال وليس فيـه كبت لحريـة الفرد، وليس فيه ضيـاع للمسؤوليـة، بل كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيتـه، من الحاكم حتى أدنى فرد في الأمة..

وبهـذا ترى أن الخطـوة الأولى التي بدأهـا النظـام الشيـوعي في إنكار الدين وأنه أفيون الشعوب، كان ذلك هو أصل البلاء الذي نزل به، ولن تصلح أمـور أمـة من الأمم إلا إذا اتبعت منهـج الله في كل ميادين الحياة. إن الله رسم منهجاً متكاملاً للبشر في السياسة والأخلاق والاقتصاد والحياة، ورتّب حقوقاً وواجبات وفصّل وأجمل وأطلق ومنع، وبشّـر ونفـرّ، ورغّب ورهّب ... ولكنـه ضمن نظـام كامـل يعطي للإنسـان حريتـه وكـرامتـه في جوٍ من العقيـدة الصحيحـة التي تدفـع بالإنسـان إلى اكتشـاف آفـاق المجهـول دون تسلّط دولـة أو حكومة أو حزب، بحيث يشعر بكرامته ويتصرف كما لو كان له مطلق الصلاحية ولكنـه مرتبـط بحـرية لا تمس حرية الآخرين ولا تتعارض مع مصلحة الأمة العليا وضمن نطاق المنهج الرباني الذي أمرنا باتباعه.

إن قصـور المسلمـين في تبليـغ دعـوة الإسلام هو بعض أسباب انتشـار أمثـال تلك المـذاهب ولـذا يرى البعض بأنه يقع بعض تبعات فسـاد هذا العـالم على المسلمـين لأنهم يملكـون المنهج الكامل ولأنهم قصّـروا في تبليغـه إلى الإنسـانيـة، المسلمون اليوم يقع على عواتقهم إصلاح العالم المادي والمعنوي لأنهم وحدهم يملكون خلاصه من كل

ما يعمل على فساده دينياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً . إن الإسلام اليوم يزحف على الغرب وعلى أكثر من قارة وعلى يد علماء درسوه بصدق ونزاهة وتحققوا من صحته . فلننطلق بهذه الرسالة إلى أصقاع الأرضِ كما فعل أجدادنا ، وقبل أن يصلنا هؤلاء المؤمنون ويغزون بلادنا بالإسلام يقولون لنا «هذه بضاعتكم ردت إليكم» . . .

الفصل التاسع
خرق طبقة الأوزون ردّة حضارية

. . . هذه الطائرة الكونية التي نمتلكها منذ آلاف السنين والتي طير بسرعة /١٠٧/ آلاف كم/سا فلا نكاد نشعر بدوار أو صداع أو اهتزاز، وقد هيئت لنا فيها كل وسائل العيش وسبله من طعام وشراب ورفاهية، والتي أُطلقت أيدينا فيها نسعى ونبني أطرافها. .هذه السفينة الفضائيه ـ الأرض ـ هل جاءك نذيرٌ بأن بعض أبنائها القابعين في زواياها المختلفة قد تعدوا حدودهم فلوّثوا غلافها الجوي بغازات مصانعهم وجاروا على الأحياء في البر والبحر وعملوا على إزالة الشريط الأخضر فيها وعلى ارتفاع درجة حرارتها، وأخيراً على خرق طبقة الأوزون التي تقيهم من أشعة الشمس المهلكة وتدفع عنهم الموت الزؤ ام .

لم يشهد الغلاف الجوي المحيط بأرضنا قدراً من التلوث مثل القدر الذي أصابه خلال العقود الأخيرة. ومن نعمة الله على الإنسان أنه يبصّره بنتائج ضلاله وسوء تدبيره قبل فوات الأوان ويعرّفه بأخطائه ليحاول إصلاح ما أفسد ويتابع مسيرته في الحياة على نور وبيّنة .

ولكن الإنسان ـ الغربي خاصة ـ والمتطور صناعياً وحضارياً بدافع من إتخام الجيوب بالمال. وعدوانه على الأمم الضعيفة بنهب خيراتها وخامات بلادها ومعادنها، ومحاولة تصنيع تلك المواد وبدافع من حب المال والرفاهية عمد إلى إنشاء المصانع الكيماوية والتكنولوجية فاضطر إلى أن يلوّث البيئة والمياه والهواء وحتى طبقات الجو العليا... أما التربة فقد لوّثها بما ألقى فيها من سموم من المخصبات والأسمدة والمضادات للحشرات والآفات، أو بنفايات الصناعات العديدة. ولوّث المياه بمختلف المجاري والصناعات وناقلات النفط، كما لوّث الهواء بما تنفثه عوادم السيارات والمصانع والحرائق فرفع تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو ولوثه بغازات أخرى سامة لم تكن موجودة فيه مثل أكاسيد الكبريت والنتروجين الناتجة عن احتراق الوقود ومن عملية التسميد، هذه الأكاسيد التي تسبب المطر الحمضي وذلك عندما تذوب في مياه الأمطار والتي تصبح أحماضاً مخففة تتركز مع الزمن لتقضي على شتى صور الحياة(٨٨).

كما لوث الإنسان طبقات الجو العليا حتى أصبح غلاف الأوزون اليوم على درجة من الرقة والضعف، وذلك من خلال الاستعمال المتزايد لغاز (كلور فلور هيدرو كربون) كغاز طارد يرتفع ببطء شديد في الجو ويستغرق عشر سنوات كي يصل إلى غلاف

---

(٨٨) مقالة د. سمير رضوان «معارك الاستشراق» في مجلة العربي العدد ٣٥٤.

الأوزون على ارتفاع يتراوح بين ٢٥ ـ ٤٠ كم عن سطح البحر. . .

فما هي ـ طبقة الأوزون ـ هذه وما مدى خرق الإنسان لها ومانتائج ذلك على المدى البعيد؟

تقع أرضنا على بعد من الشمس بحيث تصلنا أشعتها بعد ثماني دقائق حاملة كمية من الطاقة اللازمة للحياة. . . وجو الأرض فريد من نوعه إذ هيأه الله لحياة البشر ومهدّه وبسطه بحيث جعله صالحاً ليعمره الإنسان بينما الكواكب الأخرى نجد بعضها محاطاً بمواد سامة كالميثان والنشادر وثاني أكسيد الكربون. . أما الأرض فهي مغلقة بخليط من الأوكسجين والآزوت غير المؤذي يضيف إليها تركيز من ثاني أكسيد الكربون وغاز الماء، وهذه كلها مما تحتاجها الحياة وهي ما يجعل من الأرض كوكباً صالحاً للحياة[٨٩].

والأرض منذ ملايين السنين بدأت تتهيأ لتدب فيها الحياة بأشكال معقدة ولا متناهية وكانت الخلايا البسيطة الأولى عبارة عن بكتريا وطحالب غير قادرة على تنفس الأكسجين وعلى العكس من ذلك فإنها كانت تنتج الأكسجين كنفاية لعملية التمثيل الضوئي ولقد اختلط هذا الأكسجين على مدى بلايين السنين مع المعادن ليشكل الأكاسيد وعندما أشبعت هذه المعادن ولم تعد قادرة على امتصاص المزيد من الأكسجين راح الباقي منه يتسرب عبر الجو مشكلاً طبقة

---

(٨٩) مجلة آفاق علمية ـ العدد ٢١ اكتوبر ١٩٨٩.

الأوزون العالية الارتفاع . وكانت الشمس خلال هذه الفترة بأشعتها فوق البنفسجيــة قد عملت على تركيب الأحمــاض الأمينيـة للحيـاة البـدائيـة ولكن هذه الأشعـة في نفس الوقت كانت تشكل خطراً على أشكــال الحيــاة على الأرض وخـاصـة الأحيـاء القـادرة على تنفس الأكسجين ـ وخاصة الإنسان ـ فكانت طبقة الأوزون التي تمتص تللك الإشعاعات القاتلة بتشكيلها درعاً يحيط بالأرض .

وآليـة ضبـط الأكسجـين هي الأهم بين العـوامل العاملة على اتزان الحياة على الأرض فهي تعمل على ضبط نسبة الأكسجين ثابتة عند ٢١٪ فإذا قل الأكسجين لم تعد الحياة ممكنة وإذا زاد عن ذلك أدى إلى نشوب حرائق لا أسباب لها . . .(٩٠)

وتلعب الأشجـار والنبـاتـات دوراً رئيسيـاً في ضبـط مستـويات الأكسجـين وثـاني أكسيـد الكربون بواسطة عمليات التمثيل الضوئي فهي تأخذ من الهواء ثاني أكسيد الكربون وتطرح الأكسجين .

طبقـة الأوزون ، هـذه النعمـة الإلهيـة المحيطة بكوكبنا والعاملة على عكس الأشعـة الكـونية الضارة وإنفاذ ما يصلح الناس من أشعة الشمس ، هذه النعمـــة ماذا فعـــل بها الإنســان على الأرض بعلومـه وحضارته بل قل بجهله وحبه للمادة؟

فمن أجـل رفـاهيـة الإنسـان وراحتـه في العيش ، كانت المـواد

(٩٠) نفس المجلة .

الكيماوية التي تستخرج تستخدم في عمليات التنمية والانتاج الصناعي والتي أصبح استخدام بعضها ضرورة حتمية كالمكيّفات والثلاجات وأجهزة التلفاز والفيديو. . . وكل هذه الأدوات تستخدم في صناعتها مواد كيماوية خطيرة تؤثر تأثيراً ضاراً على الغلاف الجوي.

هذه المواد التي تسمى ـ كلورو فلورو كربونات ـ متعددة بيد أن هناك خمسة أنواع من هذه العائلة تسبب تآكل طبقة الأوزون في الجو، ويكون التركيز الأكبر منها على ارتفاع ٢٠ ـ ٤٠ كم ومن قدرة الله أنه نجعل كميات صغيرة جداً من هذا الغاز منتشرة، هذه الكميات لو تم جمعها وضغطها لوجدنا حجمها ٥ ـ ٦ سم٣، نعم من ٥ ـ ٦ سم فقط هذا هو سمكها ولكنها تستطيع حجب الأشعة الكونية الضارة القادمة من الشمس.

فهناك نوع من الأشعة فوق البنفسجية قاتل يقتل الزرع والضرع والإنسان، وهناك نوع آخر من الأشعة لو زاد تأثيره على حد معين فإنه يسبب إصابة العيون (بالمياه البيضاء) ويسبب الإصابة بسرطان الجلد ونقص المناعة في الجسم كالإيدز. . .(٩١)

وقد تأكد العلماء من خلال أبحاثهم العلمية من العلاقة الكبيرة بين تلك المواد الكيماوية وتآكل طبقة الأوزون. كما تأكد للعالم أن هناك فجوة فوق القطب الجنوبي مصابة بنقص في كمية الأوزون من ٤٠ -

---

(٩١) كتاب ـ الإنسان والبيئة صراع أم توافق. حوار مع د. مصطفى طلبة ص ٢٣.

٥٠٪ من الكميـــة المفــترضـــة فإذا علمت أن الأوزون هذا لا يمكن تخليقـه معمليـاً من قبـل الإنســان إذ هو يتركب في الكون باتحاد ذرتي أكسجـين ثم تتـدخل ذرة أكسجين ثالثة وأن هذا المركب يتكسر بأشعة الشمس ولكن العناية الالهية جعلت معدل التكسير معادلاً لمعدل التخليق(٩٢) إذا علمت ذلـك أدركت أن الإنســان بما يطلقه من غازات ومواد في الجو إنما يجني على نفسه ويهلك نفسه بنفسه.

وعندما تدخلت تلك المواد الكيماوية حدث خلل هائل إذ أصبح معـدل تكسـير الأوزون أكـبر من معـدل التخليق واختل ذلك النظام الكـوني المـوضـوع للحفاظ على البشر. واقرأ معي قول الله تعالى: ﴿إذا السـماء انشقت﴾ ﴿وإذا السـماء انفطرت﴾ أي اذكر أيها الإنسان عندما تنشق السماء وتنفطر وتتكسر وليس هذا الانفطار موقوفاً على يوم القيـامـة فقـط، فها هي ذي السماء تنشق وتتفطر بيد الإنسان وها هي صيحات العلماء تتوالى منذرة الإنسان على ظهر هذا الكوكب ومحذرة من المخـاطـر التي سيتعـرض لها البشـر من تشقق طبقة الأوزون والتي كانت ربـما أخطـر من الـذرة، فإذا كنـا نملك ضبـط الجان النووي في الـذرة بأزرار وأجهـزة تحكُّم فإن طبقـة الأوزون يكـاد يكـون قد خرج عامــل الضبــط لها من أيـدينـا اللهم إلا إذا صدقت تلك الـدول في مؤتمـراتهـا من أنها بدأت عن طريق علمائها للبحث عن البدائل لتلك

---

(٩٢) الكتاب نفسه.

الصنـاعـات، وفي حوار مع الـدكتـور ـ طلبـة ـ وكيـل السكرتير العام للأمم المتحدة للبيئة أفاد بأن هذه البدائل ستكون متاحة بشكل تجاري في الأسـواق العـالميـة خلال فترة من ٧ ـ ٨ سنوات، وهذه خطوة جادة من دول العـالم الصنـاعي تنبىء عن وعي بالخطـر المحـدق بالعـالم وعقلانية الإنسان في تدارك الأخطار المحيطة بنا.

معـادلـة صعبة جداً طرفها الأول والأخير هذا الإنسان إذ عمد بحضارته وصناعته إلى التعدِّي على طبقة الأوزون فخرقها ولكن لن يستطيـع أن يخل بالتـوازن دون أن تتأرجـح به الحياة وتنكفىء، ولكن الـدكتـور ـ سمـير رضوان ـ يرى أن البشرية لو استطاعت أن تمنع تماماً صنـاعـة تلك المـواد وإطـلاق تلك الغازات، فإنها لن تستطيع إيقاف خرق طبقـة الأوزون هذه وسـوف يستمـر التآكل لسنوات عشر أخرى على الأقـل وهي الفـترة التي تستغرقها الغازات التي رششناها اليوم أو أطلقنـاهـا من مصـانعنـا، ويذكِّر هنا بقول العالم السويدي ـ لارسن ـ مكتشف تلك الطبقة بأنه أعلن منذ شهور قليلة أن معدل تآكل غلاف الأوزون قد انخفض إلى حد ما ولكنـه ما زال في الحـدود الحـرجـة، ولكننا نفهم من خلال الحوار الجاد بين الدكتور طلبة وبين ممثلي الدول الضناعية تلك قد أعطى نتائج مثمرة وبنّاءة وأنها أدركت مدى الخطورة المحققـة على دمـار العالم ولذا نرى أنها في طريق خطوات جديّة لإيجاد البدائل خلال عدة سنوات . .

وهنـاك عامـل آخـر كان من أسبـاب خرق طبقـة الأوزون هو

الغـازات النـاتجـة عن الحرائق في الغابات الشاسعة، فالغازات الناتجة من هذه الحرائق لها أثر في نقص سمك طبقة الأوزون في منطقة القطب الجنـوبي، وسببت تلك الحـرائق مع أنشطـة الإنسـان ومصانعه تزايد نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، والنتيجة لهذا تزايد متواصل في درجة حرارة مناخ الأرض، ونضوب الماء وتدمير التربة الزراعية، لأن المعـروف أن غاز ثاني أكسيـد الكربون يسمح لأشعة الشمس أن تصل إلى الأرض ولكنـه يحجـز الأشعـة الحرارية المرتدة من الأرض ويمنعها من مغـادرة الغـلاف الجـوي فتحتفـظ الأرض بها ومع تزايد نسبة هذا الغاز في الجو تصبح الأرض كمصيدة كبيرة للحرارة. . . (٩٣)

وهكذا نرى أن الحياة على الأرض تدور في وحدة مستمرة كل كائن حي أو ميت له مكانة في هذه الدورة، ويبقى كل جزء من هذه الأرض مرتبطاً بالأجزاء الأخرى فحرمان الأرض من الشريط الأخضر سيؤدي إلى فســاد الحيــاة على الأرض وإلى مزيــد من الحـرارة، وانطـلاق الغــازات سيؤدي إلى خرق الأوزون وقتــل الحيــاة، وتلوث البيئـة بالاشعاعات والسموم ونفايات المصانع لا بد أن يترك أثراً بالغاً

فالخلل الـذي يحصـل في مكـان ما يسبب تأثـيرات ملحوظة في مكان آخر وإذا كان متوسط درجة حرارة الجو ارتفع خلال عشرة آلاف سنـة درجـة واحـدة فإن العلماء يتـوقعـون أن ترتفع تلك الحرارة خلال

(٩٣) مجلة العربي العدد ٣٦٩ آب ١٩٨٩ مقال الأستاذ رجب سعيد السيد.

السنوات الخمسين القادمة ما بين ٣ ـ ٥ درجات، وقد بدأنا نحصد النتائج من صيف عام ١٩٨٧، بسقوط أمطار غير اعتيادية أدت إلى تلف المزارع وإلى الانزلاقات والانهيارات الأرضية(٩٤)، ويعلل الدكتور رضوان ارتفاع درجة الحرارة تلك بارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون في جو الأرض من جراء احتراق الوقود في المصانع والسيارات ومن جراء قطع الغابات أو احتراقها وهي التي تستهلك قدراً من ثاني أكسيد الكربون في عملية التمثيل الضوئي. كما أن الباحثين قد اكتشفوا في طبقات الجو العليا غلافاً من غاز الميثان، وهذه الطبقة التي نشأت في الزمن الحديث تعكس الحرارة التي تفقدها الأرض عادة في الفضاء فتعيدها مرة أخرى لترفع من حرارة الجو. .

فإذا استطاع الإنسان بعلومه وحضارته أن يصلح ما أفسده في الكون مائه وهوائه أرضه وسمائه، من سموم واشعاعات وتلوث، إذا استطاع أن يتدارك نفسه فقد نجا وأنجى وإلا فالخطاب من الله لهؤلاء جميعاً: ﴿فأين تذهبون إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أو بقوله تعالى: ﴿هذا نذيرٌ من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة﴾ إذا لم يثب الإنسان إلى رشده ويغيّر من أنماط سلوكه وصناعته تجاه البيئة تغييراً جذرياً، ومالم يتعلم من دروس الماضي والحاضر فلن تكون عنده القدرة على محاربة قانون الله في الطبيعة فإن الله تعالى ما وضع

---

(٩٤) مجلة العربي العدد ٣٥٤ أيار ١٩٨٨ د. سمير رضوان.

قانونه ونظامه إلا لصلاح البشرية . فإن حاولوا خرق هذا النظام فلا بد من أن تنـزل العقـوبـة بالجميـع إذ الأرض كلٌ متكـامـل وكل فرد فيها مسؤول عن سير هذه السفينـة الكـونيـة في هذا الفضاء غير المحدود، ومـا حالنـا اليوم والأمم المتطورة التي عملت على خرق طبقة الأوزون إلا كذلـك المثـال الـذي ضربـه رسـول الله ﷺ للصحـابـة عن جماعة استهمـوا سفينـة فأراد أحـدهم أن يخرق خرقـاً في موضعه غير آبه بمن حوله وظناً منه نه لا يسيء إليهم فيقول ﷺ : [فإن أخذوا على يده نجا ونجوا جميعاً وإن تركوه هلك وهلكوا جميعاً] .

قال تعـالى : ﴿مـا فرّطنـا في الكتاب من شيء﴾ ، وقال : ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ فهذا النظام المقدّر بمقدار، والقانون المسيّر من قبل الله لن تستطيع حضارة الإنسان أن تعيد الهدوء والطمأنينة والسعادة له إلا إذا التـزمت بسلوكيـة ووعي راشـد واتصفت بأخـلاق الإنسـان الذي يكـرِّم بني جنســه عن أن يسيء إليهم بأسلوب من الأساليب . . . وها هي النـذر تحيـط بالإنسـان تنبئه عن مجاوزته الحد في كل خطوة يخطوها من قطـع الغـابـات وحرقها أو دخان المصانع أو تلوث البيئة ، والطبيعةُ بقدرة الله تملك من الوسائل ما تستطيع أن تخضع هذا الإنسان على الأرض .

فهل نتعلم من هذه الدروس قبل فوات الأوان؟

الفصل العاشر
القضية الفلسطينية
كبرى القضايا العالمية على الساحة الدولية

يحار المرء في قضيتنا، قضية العرب الأولى، قضية فلسطين كلما زاد تعمقاً في البحث عن جوانبها زاد جهلاً وسطحية وأحس أن الأمور اشتبكت عليه، وذلك لامتدادها التاريخي واختلاط السياسة فيها بالدين، بحقوق الإنسان، وتعلقها باليهود مرة وبالصهيونية مرة أخرى وبالاستعمار العالمي ثالثاً، ولكونها مهد الديانات السماوية الثلاثة، وقد تعجب كيف يجتمع فيها طهر وقداسات الديانات والى جانب ذلك أخبث كيان على وجه الأرض.

وإذا كانت القضايا العالمية قد حُلّت كمشكلة فيتنام وحتى مشكلة الأفارقة السود في جنوب أفريقيا فإنه على الساحة العالمية لم يعد هناك من قضية سلبت أنظار المفكرين وحيّرت المحللين وتناقضت فيها الآراء وتعددت المناقشات مثل هذه القضية، فمن أين جاءت عالمية هذه القضية وإلى أين انتهت؟

المتتبع لتاريخ القضية قريب قرن من الزمن يرى أن الأمور

بدأت تتعقـد منـذ اللحظـات الأولى عندما تطلعت الصهيونية العالمية بمسـاعـدة الاستعمار البر يطاني على إقامة كيان لها في فلسطين، فأقيم هذا الكيـان ليكـون رأس حربـة في وجه من تسوّل أنفسهم من العرب إقامة وحدة في المشرق لتبقى السيطرة على الطرق التجارية بيد الغرب.

وتاريخ الصهاينة في فلسطين مليء بالمتناقضات التي كان يفتعلها هذا الكيـان لتمهيد السيطرة على فلسطين، ولهذا استغل هذا الكيان انتـداب بريطـانيا على فلسطين ـ وهي التي أخلَّتْ بوعودها مع العرب وأعطت أقدس أرض لهم للصهاينة فبدت في قمة الكرم والجود لدرجة لا توصف سخـر منهـا أحد السياسيين بقوله «إن بريطانيا بلغ بها الكرم حداً أنها تمنحك القميص الذي يلبسه جارك» إشارة إلى وعد بلفور.

قلت استغل الصهاينة هذه الدولة المستعمِّرة بريطانيا في التمهيد له على أرض فلسطـين فكـان أن ضغطـوا عليهـا فنـالوا وعد بلفور ثم أنشؤوا الـوكـالـة اليهـوديـة لتنظيم الهجـرة إلى فلسطـين، ثم أنشؤوا المستعمرات اليهودية ثم افتعلوا الخلاف بينهم وبين العرب ليتسنى لهم تشكيـل عصـابـات الأرغـون والهـاغـانا و. . . ثم عملوا على صناعة السلاح في فلسطين، وهيؤوا للمذابح المتعددة، وأخيراً تم للصهيونية ما تريد، في فشل الجيوش العربة عندما دخلت فلسطين من إحراز النصر.

ثم شكلت لها دولـة وكيـانـاً مصطنعـاً وكـان أن تغـيرت صورة

الاستعمار بعد ذلك فدخل الساحة الاستعمار الأمريكي بديلاً عن الاستعمار البريطاني الذي صفعته الصهيونية على وجنتيه مرة وعلى قفاه مرة أخرى عندما راح بعض ضباطه ونائبيه يتهادنون مع العرب ـ في رأيهم ـ فكان الصهاينة يلاحقون هؤلاء الانكليز حتى بالقتل إلى أن اضطروهم إلى الفرار وتسليم القيادة للدولة التي احتضنت الصهيونية زمناً طويلاً، بل للدولة التي تعانقها الصهيونية عناق الأم لولدها، الصهيونية التي عملت على الهيمنة على كل إعلام واقتصاد وثقافة العالم والتي وضعت ضمن ما وضعت بروتوكولات حكماء صهيون بموادها المتعددة التي تنتهي إلى إفساد ضمائر ودين وأخلاق العالم ليتسنى لهم أن يقودوا البشر الضالّة كالبهائم بتعاليم التلمود.

هذا الصهيونية هي التي راحت تثبت أقدامها في فلسطين عام /١٩٤٨/ وراحت تتابع سياسة المذابح في كفر قاسم وقبية والسموع . . . وحثت الاستعمار الفرنسي والانكليزي في العدوان الثلاثي لتأديب مصر التي قرر قائدها تأميم القناة وأبدى صفحة وجه عربية متحررة ودعا إلى وحدة عربية من المحيط إلى الخليج.

ولما فشلوا في ذلك ظلت جهودهم تبذل لمحاولة إعاقة كل فكرة للوحدة تقوم بين الأقطار العربية حتى كانت وحدة مصر وسوريا /١٩٥٨/ والتي لم تدم أكثر من ثلاثة أعوام وعندها راحت الصهيونية تنشب أظفارها في فلسطين وراحت تقيم مصانع الطائرات والآليات الثقيلة وتضايق السكان العرب وتهيء الجو لتنفيذ وعود ـ يهوه ـ إلههم

في التـوراة لتحقيق النبـوءة «من الفـرات إلى النيـل» فكـان أن بادرت بهجـومهـا عام /١٩٦٧/ على ثلاث دول عربيـة واستطـاعت بمعونة الاستعـمار الأمـريكي التشبث واقتطاع أجزاء من ثلاث أراضي عربية منها الضفة الغربية وسيناء والجولان . . .

والغـريب أن العـالم يومئـذ لم يتقبل النكسة إلا على أنها هزيمة للعـرب الظالمين، وانتصار لليهود الذين كانوا سيُذبحون ذبح النعاج، ولكن الله انتصر لهم، وما ذلك إلا لضعف إعلامنا في الخارج وانتصار الإعـلام الصهيـوني في إقنـاع العـالم بأنه الشاة أمام ذئب العرب الذي يريد أن يفتك بها ويتوعدها.

ثم كان ما كان من تغيـير الخـارطة السياسية لفلسطين واستنسر البغاث وشق الغلام الصهيوني عصا الطاعة وبدا الكيان الصهيوني في قمة النصر والتحدي، وإذا كانت حرب تشرين /١٩٧٣/ قد شحنت معنـويـات العرب بمزيد من القوة فإنها قد هيأتهم للمعركة القادمة . . ولكن الصهـاينـة كانـوا بعـد ذلـك أسبق منا فزحفوا على جنوب لبنان واحتلوه وحـاصـروا الفـدائيـين ثم عملوا على تدمـير لبنـان ومـا زالوا يتر بصون به الدوائر بمساعدة القوى الانفصالية محاولين تقسيمه شمالاً وجنوباً.

واليـوم تقف الصهيـونيـة على سطـح العـالم بصورة المارد الذي يحاول أن يتمـدد ويحتـل وينتفض. . . إنـك لا تستطيع أن تتنبأ أحياناً بزوال الدول أو الأمم أو الشعوب نظراً للتدبير المحكم الذي تتخذه أو

القوة التي تحتمي بها وتتدرع في سبيل القبض بيد من حديد على ما احتلته من أرض.

ولكنك ما تلبث أن تلمح وراء الرماد بصيص نار ووراء الغبار شبح قادم، ووراء الضباب قيعان ماء، وكذلك هو الكيان الصهيوني ونظرتك إلى خلفية ما يعده وما يدبره في الخفاء، ففي الوقت الذي ظن فيه هؤلاء أنهم قد انتهوا من صناعة السياسة العالمية وأحاطوا فلسطين بالأسلاك الشائكة الكهربائية وادّرعوا بترسانة السلاح الأمريكي وبالذرّة والصاروخ، في الوقت الذي ظنوا فيه أنهم لن يُهزموا من قلة سلاح ولو اجتمع في وجههم كل العرب، في هذا الوقت أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب فكان أن انطلقت الانتفاضة.

الانتفاضة وأبناء الحجارة:

كان شعبنا في حسبان الصهاينة والمستعمر الأمريكي أنه قد انتهى دوره في سيادته على فلسطين فهو أجرد أعزل من السلاح ونصف سكانه أو يزيد خارج فلسطين ومن بقي منهم لا حول ولا قوة يقبعون تحت الخيام وقد نزعت منهم أراضيهم وصارت مستوطنات لليهود المهاجرين ونسسفت بيوتهم وزُجّ بأبنائهم في السجون واتخذت ضدهم أبشع الإجراءات بحيث بدا للعالم أنه قد استتبّ الأمن للصهاينة في فلسطين وهم ينامون ويحلمون بأرض البرتقال والزيتون

ملكاً لهم ووعـود ـ يهوه ـ لهم ولابـراهيم بأنهـا ملك لك ولأبنـائك من بعـدك. . . وإذ بهم فجأة يغيم الجـو وتـربـدّ السـماء ويسقط الأمر من أيديهم وتنقلب السفينة الآمنة من جديد. . . لقد انطلقت الانتفاضة.

عالميـة قضية فلسطين والنزاع السياسي المتطاول وملفات الأمم المتحدة بشأنها بهذا الشكل وبهذا المأزق الذي سارت فيه هذه القضية كان مخططاً له، لأنها بهذا التعقيد تخدم الصهاينة إذ يجدون من خلالها مسارب يحوِّلون فيها القضية إلى قضايا جانبية فرعية ثم يبتعدون فيها عن السبب الرئيسي لها لتتحول إلى قضية لاجئين وليس قضية شعب طردوه من أرضـه وسـرقـوا خيراته. ولهذا نقلوا القضية من بداياتها إلى منـبر الأمم المتحـدة وعقّـدوا موادهـا باحتـلال أرض وراء أرض وطرد للسكـان وراء طرد بحيث بدت كأن خيـوطها أمام الرأي العام العالمي من التشـابـك والتعقيـد بحيث تكـاد أن تكـاد أسطورة ليس لها حل، وبحيث ينتهـون إلى أن يُقـرّ لهم المجتمـع الـدولي بأنهم كشعب فوق فلسطين فلا يمكن أن يطردوا أو يقضى عليهم، ولا بد على أبعد حل ـ بعـد هذا الـواقـع المفروض ـ أن يقتسموا فلسطين مع أصحابها، بل وحتى هذا الحل المتهادن جداً من جانب العرب رفضه الصهاينة ورأوه مسـاسـاً بحقوقهم الشرعية وسطواً عليها من قبل العرب، فانظر كيف صار اللص صاحب الأرض وحـارس البيت وصـار صاحبها يستجدي فلا يؤبه له ولا يُبالي به . . .

في غمرة هذا المأزق تبرز عالمية الصراع الجديد في القضية الصراع بين اليد الفلسطينية الحاملة للحجر وبين صواريخ العم سام ومدافع بيغن، بين أطفال الحجارة وطواغيت البيت الأبيض الأمريكي، بين نساء فلسطين وموقعي وثائق ـ الفيتو ـ في منبر الأمم المتحدة. .

صراع ما زال يزداد له عجب الصهاينة وقادتها إذ علموا أن وراءه الإسلام وليس العروبة فقط وهذا أخشى ما يخشونه، وإذا كانوا استطاعوا أن يطولوا بعض قادة الانتفاضة ويطردوهم من فلسطين إلى الخارج فان الأرض المقدسة ما زال فيها من يحسن قيادة هذا الشعب إلى النصر.

واليوم تقف الصهيونية فاغرة فاها والدهشة تأخذ بمجامع قلوب أبنائها. كيف يصمد هذا الشعب الأعزل وهم يزدادون قهراً ومرارة كلما عرفوا أن الإسلام من وراء انطلاقة هؤلاء، وهم أخوف ما يخافون من العرب أن يستيقظ فيهم نور الإسلام، لأن ذلك يذكرهم بما فعله المسلمون مع أجدادهم من بني النضير وبني قنينقاع، ومن الغريب أن بعض قادة الأمة العربية ما يزالون يظنون أن معركتنا هي بين العروبة والصهاينة أو بين القومية والصهيونية. .

لقد عملت الصهيونية على نزع الدين من المجتمعات الغربية وعلى نشر الالحاد زمناً طويلاً مزّقت فيه قيم وأخلاق ودين هؤلاء ولكنهم فوجئوا اليوم بأن الإسلام أصلب منهم وهو يزحف على

القارات الخمس ـ رغم ضعف المسلمين ووسائلهم ـ وهم إنما يتخوفون من انطلاقة هذا الدين في العالم وخاصة فلسطين ولهذا خاطب أحدهم رجال حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين قائلاً «أنتم أسوأ من منظة التحرير الفلسطينية هل تعرفون لماذا؟ لأنكم تجمعون بين العروبة والإسلام. بين الوطنية والإسلام ولذا ليس من سبيل للقتال معكم سوى اجتثاثكم من جذوركم»(٩٥).

الإسلام إذاً هو الذي يقود الانتفاضة ويخطط لها بشهادة العدو نفسه، ولهذا لا يمكن أن تتوقف أو تنتهي، إن العقيدة الثابتة في قلوب أهلنا في الأرض المحتلة لا يمكن أن تتزعزع أو تذهب دماء أبنائها هدراً، إن نضال أربعين عاماً لا يمكن ولا يجوز أن يبيعه أي حاكم عربي أو فلسطيني بتوقيع على وثيقة مهادنة أو استسلام وما خطوة السادات إلا أكبر خطأ في فهم جدلية التاريخ وأسوأ قراءة لدماء الشهداء وأخسأ صفقة في تاريخ شعوب الأرض.

معركتنا القادمة ليست عربية محضة ـ وإن كان العرب ركناً فيها، وليست قومية وإن كانت القومية وسطها، ولكنها معركة إسلامية ضد القوى الصليبية الصهيونية المتآمرة والمتآزرة من جديد والتي عملت أكثر من قرن على طمس الحقائق وضياع الحقوق.

لن تستطيع أية قوة أن تقف في وجه مسار التاريخ، تاريخ الشعوب ونضالاتها ولو كانت القوى العالمية لأن الله باريء النسم لن

(٩٥) نشرة المجاهد ـ تصدرها حركة الجهاد الإسلامي فلسطين ـ العدد ٢٠ كانون الثاني ١٩٩٠.

يدع أصحاب الحق العزّل الذين ينصرون دينه، لن يدعهم كالشياه في مخالب الذئاب، فلقد حملوا راية الجهاد وبيمينهم الكتاب المقدس، وفي قلوبهم هيبة الله ورفع راية دينه وتحرير بيته المقدس.

إن الانهزامية التي تقبع وسط قلوب البعض منا حكاماً ومحكومين هي أكبر سلبية وأكثر مرارة من مرارة استشهاد أبنائنا فكيف يعقل أن يحمل أطفالنا الحجارة وعلى أكثر من عامين ويسقطون شهداء ثم يقف أصحاب الكراسي يفاوضون ويناظرون ويراهنون على القضية، كيف تراهن وابنك يقتل؟ كيف تسالم وأنت ترى بأم عينيك أهلنا في الأرض المحتلة تسيل دماؤهم وتسبى نساؤهم وتقتل أطفالهم وتكسر عظامهم ويدفن أحياؤهم ويُسمّم بمياه الشرب عطاشهم، وتهدم بيوتهم وينفى من فلسطين قادتهم...

لا أدري لهذا تفسيراً إلا أن بعض الناس عندما يريدون أن يُجنّوا يكون جنونهم مركباً فلا تستطيع حتى بلغة المجانين أن تفهم ماذا يقصدون من تصرّفاتهم.

لا أحد يستطيع أن يسحب البساط من تحت الانتفاضة لأنها أصلب من كل قوة ولا أحد يستطيع أن يبيع دماء شهدائها وهم فوق أرضهم ولا أحد يستطيع أن يحرف مسارها فلقد عرف شعبنا الطريق وخاضه رغم مرارته وعندما تعرف الشعوب طريقها لا يمكن أن تتراجع إلا على جثث أعدائها.

فإذا عرفت أن معركتنا ليست معركة عرب ويهود وإنما هي معركة

إسـلام وإلحـاد إيمان وردّة، معركة فضيلة ورذيلة، معركة نتحمل فيها نحن أبنـاء فلسطـين وزر الصهيـونيـة العـالميـة وقد لفظتها أمم الغرب لتحتل أرضنا وتقتل أبناءنا، إذا عرفت ذلك أدركت أننا نحارب لا من أجل فلسطين وحدها وإنما من أجل الإنسان على وجه هذه الأرض، الإنسان الذي دمرت الصهيونية حياته ونغصت عيشته وجردته من كل خلق ودين وفضيلة.

إننا في معركة لتخليص العالم من كل عناصر الشر وبؤر الفساد المتمثلة بالصهيـونيـة العالمية، فهل يعي أبناء العروبة والإسلام ذلك؟ وهل تعي شعوب الغرب هذه الحقيقة وقد آن أن يفتحوا عيونهم ليروا الحقائق أسطع من الشمس ويعرفوا دور الصهيونية الحقيقي في بلدانهم وفوق أرض فلسطين.

لن تنـام الإنسـانيـة ملء عيونها إلا عندما يتم القضاء على هذا الكيـان الصهيـوني الـذي نغّص على أبنـاء العـالم حياتهم ودمر عقيدة البشر وجعل الشعوب تائهة بين الرذيلة والفجور وعمى الشهوات.

تلك هي عالمية القضية التي نقاتل من أجلها منذ عقود عدة وما زلنـا كل ذلـك من أجـل تحريـر ترابنـا المقـدس، وتحرير الإنسان على الأرض ورفع شعارات الحرية والمحبة والكرامة الإنسانية.

الفصل الحادي عشر
العالم في مخاض وسيلد الإسلام

عبرت بالإنسـان فوق هذه الأرض نظم عجيبـة كان يصطنعها البشـر، تدهـور فيهـا الإنسـان من قمـة الحرية والعدالة إلى حضيض القهر والاستعباد وتزلزلت كرامته على الأرض ومسخت عقليته فأمسى يساس كما تساس البهائم.

وبـالـرغم من الشـرائع السماوية السابقة للإسلام فإن الإنسان بعـد تطـاول الأمـد عليهـا راح يعمل عقله في تحريفها وتزويرها وقلب حقـائقهـا أبـاطيل ما أنزل الله بها من سلطان وتحولت تلك الكتب إلى مقالات مشوّهة، صارت في قالبها الوضعي الجديد تربّي إنسان القهر والظلم، وتحولت الكنيسة عن أهدافها السامية في إعزاز الإنسان ورفع نير البغي، ومسـاواة الإنسـان بأخيـه الإنسان، وتحول أبناؤ ها في هذا القـرن إلى مايشبـه الـوحـوش لهم أظفـار وأنياب طويلة طويلة بحيث صارت تصل إلى قارات بعيدة بصورة صواريخ عابرة للقارات.

ولما استطـالت مخالبهم وأدركـوا مدى قوتهم وثبـوا كالأسـد من عرينـه وراحـوا يستعمـرون بلاداً ما كان في حسبـان أجـدادهم أن

يدخلوهـا، وقهـروا الإنسان في الهند وأفريقيا وكل دول العالم الضعيفة وامتصـوا دمـاء أبنائها وخيرات شعوبها ومع ذلك لا يتورعون أن يسموا أنفسهم فاتحين ومحضّرين لتلك الشعوب.

وكان أبناء التوراة أشد بغياً وغروراً وصلفاً وعدواناً، فقد خرجوا عن طريق الله والأنبيـاء بين أظهـرهم بل لقـد نال الأنبيـاء من بغيهم وعـدوانهم مالم ينله غيرهم وقـد صرح كتاب الله بذلك ونعى على بني إسـرائيـل أول ما نعى عليهم كفرهم بالله وقتلهم الأنبياء وقولهم قلوبنا غلف، وتحـريفهم التـوراة، والجـرائم التي افتعلوها على مسرح الحياة وكـان آخـرهـا تآمـرهـم على قتـل السيـد المسيـح الـذي أُرسـل إليهم ليخلصهم من خلق الإجـرام والقتـل والتـمادي في الطغيان الذي كانوا عليـه، ولكنـه فوجىء بهم يتـآمـرون عليه مع الرومان ويدبرون معهم طريقة قتله فنجاه الله من براثنهم ورفعه إليه.

وإذا كانت الشـرائـع السماوية تتنزل من العلي الحكيم على قدر حاجـة الخلق إليهـا ولإصـلاح ما أفسد الدهر، وما أحدث الناس من فسـاد وفـوضى وضيـاع الحقوق ونشر الباطل، فإن الفترة ما بين سيدنا عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كانت من أسوأ فترات الإنسانية. فساد في كل أمم الأرض وحيرة وظلام وطغيان وآلت الأمم والشعـوب إلى التعـامي عن طريق الحق، واسـترقـاق العبيد، وعبادة غير الله من شجـر وحجـر ونـار وشمس وقمـر بحيث مسـخ العقـل في الإنسان وغار نبع الكرامة الإنسانية في هذا الجو المظلم والبيئة السادرة

في غيّها والانحراف الواضح كان العرب في جزيرتهم قد أصابهم ما أصاب الأمم وانقلبت بهم الأهواء ومالوا حيث مالوا فمنهم من بقي على شريعة إبراهيم وهم قلة عرفوا بالحنيفيينّ ومنهم من كان على بقية شريعة المسيح والتي تغيرت وانحرفت، ومنهم من آثر عبادة الأصنام من دون الله أو عبادة الشمس والقمر. . . حتى أذن الله برسالة المصطفى ﷺ وببعثته إلى الناس كافة فكانت رسالة الإسلام أشرف الرسالات وأكملها لأنها جمعت فضائل الرسالات السابقة وشرائعها وأخلاقها وزادتها بشريعة وفضيلة تصير بها صالحة لكل زمان ومكان وها هي ذي اليوم تقف بين كل شرائع الإنسان ونظمه ومذاهبه العقلية والخلقية والإنسانية تثبت ذاتها قوية وتملك مفتاح سعادة الإنسان على الأرض وإن أنكرها من أنكر، وها هو الإنسان يتخبط اليوم في حيرة دامية وقودها الحروب المدمرة والجثث المتساقطة والكرامة المهينة على الأرض.

وعلى مر السنين أثبتت رسالة الإسلام صفاءها ونقاءها سواء في دعوة الخلق إليها بكل تواضع وتسامح وحكمة، وعدم إكراه لأحد إذ أبدى الفاتحون الدعاة في فتوحاتهم من ضروب الأخلاق والتسامح والرقة ونشر العلوم ما أذهل تلك الأمم بل ما حملها على أن تترك دينها مختارة وتدخل في الإسلام، بل إن التاريخ ليحدثنا عن مواقف رائعة ما عرف تاريخ الإنسانية لها نظيراً، فقد اضطر خالد بن الوليد ذات يوم في أحد حروبه أن يسحب الجيش العربي من حمص وأهلها نصارى

يدفعـون الجـزيـة مقـابـل حمايـة المسلمـين لهم فلما عرفوا ذلك صاروا يتباكـون كي يظـل المسلمـون عنـدهم ويـرجـون خالداً . . . أخلاق ملائكيـة أين منهـا اليـوم صواريـخ أمـريكـا المسلطـة على الشعوب، ومذابح الصهيونية في فلسطين.

وتـدور الأيـام ويتوقف ركب المسلمين وينحرفون عن طريق الله حيث بدأت تنحسـر دولتهم وتـتراجـع ليحل محلها سلطان أمم أخرى وقـد انتهت العصـور الـوسطى يوم كان الغـرب يحيـا في ظلام قاتـل، وبنتيجـة القنـوات المتعددة بين الشرق والغرب تم نقل حضارة العرب والإسلام. . . ويستيقظ الغرب وبين يديه برنامج متكامل لحضارة أمة عالمية في كافة ميادين الحياة النظرية والعملية، فما أسرع ما انكبوا على دراستهـا فكـانت المفتـاح الـذي عبر وا بواسطته بوابة التاريخ وصنعوا حضارة طار رائدها في الفضاء وغاص غواصها في أعماق البحار وكادوا يضـربـون وجـه الشمس عظمـة وتحـديـاً. ورغم ذلك راحوا ينكرون معـروف اليـد التي هدتهم بل تمردوا أكثـر فحـاولوا قطع تلك اليد التي أسعفتهم في وقت كانوا فيه لا شيء في الحياة. . . ولكن تلك الحضارة لم تكن إلا حضـارة حجـر وبنـاء وزخـرف وطلاء إذ كان ينقصها الفكر الـراشـد والعقيـدة الثـابتة. . . وتطور الإنسان عندهم وصنع حضارة ورفـاهيـة وتقـدمـاً وطيارات وآلات كهربائية ولكنه لم يستطع أن يصنع سعـادة لهذا الإنسـان على الأرض بل قل إنـه صنـع الشقـاء كل الشقاء. . فما إن وقفت الدول العظمى على أقدامها حتى راحت تغذ

السير لتغزو أمماً فقيرة ضعيفة عن طريق شركات تجارية فنهبت خيراتها واستعبدت أبناءها حتى صار الإنسان الأفريقي يخطف ضمن مجموعات ليباع في أوربا أو أمريكا . . . عملية استرقاق وضيعة شهدتها القرون الأخيرة للبشرية وهي على عتبة حضارة جديدة وما زال العالم اليوم يعاني آثارها في التمييز العنصري وما زلنا نسمع عن هؤلاء الذين يميزون بين أسود وأبيض في المأكل والمشرب والمدرسة والأنكى من ذلك أنهم يتهمون الإسلام بأنه دين رقّ . . .

وكان الوجه الآخر لتلك الحضارة حروب دامية ولّدت الأحقاد والكراهية والمآسي والدمار بحيث عجز حكماء تلك الدول ـ حتى اليوم ـ عن إيقاف نزيف الدم البشري الجاري . . . وكان من ثمرات تلك الحضاة عادات وتقاليد وشهوات انحرفت بالإنسان عن طريق السلامة فكان أن انتشرت الخمور وشاع الأفيون والمخدرات بعامة وعملت المذاهب الهدامة على نشر الفساد في الأرض وحرف الشباب عن السبل الصحيحة بمبادىء وضعية من صنع البشر وأصحاب المذاهب المنحرفة من المستعمرين أو العلماء المأجورين . . فشردت العائلة وتمزقت وحدتها ونشرت الإباحية والفوضى الجنسية كما رأينا ، وبُثت الدعارة واللامبالاة ، وخلقت من إنسان الحضارة إنساناً تافهاً لاقيمة له ولا كرامة ولا يعرف من حياته غير طعامه ولذته وصار كمن تحيط به عاصفة في دوامة شديدة فأينما اتجه سمع عزيف الريح في أذنيه فأصمّه وأعمى فؤاده ، وسدّت منافذ الفضيلة والخير عنه ، وفرغت العقول

والقلوب من معاني الإيمان والعقول من فكرها النيّر بحيث تعسر الاهتداء إلى الصواب حتى على أعقل العقلاء.

وزاد الطين بلّة أن إنسان هذه الحضارة عمل بمصانعه الكيماوية ودخانها المنطلق عبر الفضاء على تلويث الأرض وخرق طبقة الأوزون في السماء بحيث تركت أثراً بالغاً ما زالت البشرية ـ وستظل ـ تعاني منه. . .

وبدا عجز المنظمات الأممية عن حل مشاكل البشر في الوقت الذي تضافرت فيه عوامل عدة عملت على خلق تلك المشاكل الدولية، وتأزمت لدرجة أن صار من العسير إيجاد الحلول لها. إن المآزق التي وصلت إليها البشرية اليوم والتي بدت تستعصي على الحل ليست إلا من صنع تلك الحضارة التي ظن أبناؤ ها ـ وقد صاروا آلهة ـ على الأرض ظنوا أن في وسعهم ـ وبعقولهم القاصرة ـ تحدي سلطان الله في الأرض حتى زعم عالمهم الملحد أنه بإمكانه أن يخلق إنساناً لو تهيأت له مواد معينة. . . ألا ساء ما يفكرون. . .

الإسلام هو المنقذ:

ومن عظم الإسلام أنه رسم خطّاً واضحاً للحضارة العربية سارت في ركابه فأدركت الهدف ونجحت في فتح نصف العالم في نصف قرن أخلاقاً وعقيدة ومدنية وعلوماً، ولم تستطع حضارة الغرب أن تفعل

جزء من هذا بل على العكس استغلت علومها ورقيّها في سبيل إخضاع الشعوب ونهب خيراتها والتآمر على الضعيف فيها .

وهنا ينتفض الإسلام ثانية ماداً يده إلى تلك الشعوب والتي طالما خذلته ولاحقت أبناءه ـ ومازال ـ محاولاً إنقاذ أبناء الأرض وتخليصهم من مآسيهم . . . لقد أوشكت حياة الإنسان على الأرض أن تكون كسابقتها قبل بعثة النبي ، بل ربما أشد سوء ومرارة وضياعاً . . . فشلت كل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في حل مشاكل البشر وعجزوا عن إقامة دعائم العدل والمساواة بين أبناء الأرض وأفلست أو كادت النظم الرأسمالية والشيوعية في أن تحل مشاكل الإنسان ، وقد خدعت ببريق المادية والذهب وحياة البذخ والغنى والتطور المادي ، وفي وقت طغت المادة على الروح فأعمتها وتحول الإنسان إلى صخرة لا يهتز مهما اضطهدت من شعوب ومهما أريقت من دماء أو انتزعت من حريات . . .

وفي ميدان الحريات التي أطلقت لأبناء الغرب لم يستطع الواحد منهم ـ في غياب العقيدة ـ أن يضبط شهوته ونزوات نفسه فكان أن جرف في تيار المادية بما حملته معها من خمور ومخدرات ونساء وشهوات ، فغرق وسط ذلك التيار وما عاد يستطيع أن يتخلص من أوزار ذلك كله وتبعاته . . . هذا التيار المادي الذي تلبّس في الظاهر بلبوس الفتن الباهرة ليخفي وراءه من دواعي الفساد ونُذر الفناء ما يخفيه ، وإن المجتمع الغربي لتكاد تسمع صيحات أبنائه وعويلهم بين الحين

والحين على الرغم من كل التقدم والغنى فليست سعادة الإنسان بالمادة وحدها، إن الروح لها حقها ولها ضريبتها فإذا لم يحسب لها حساب وإذا لم تعمل على النهوض مع الفكر والعقل وعلى انتزاع الإنسان من كلب المادة وسلطانها وإلا فعلى تلك المجتمعات السلام.

إن لقاء الإسلام اليوم مع كل تقدم علمي في الغرب، وكل حضارة ورقي ليعني أنه هو الغاية وهو الهدف وهو المآل والملجأ، وعنده الحل والربط، إنه نظام متكامل صلاحيته لكل زمان ومكان... كل صيحات العقلاء في الأرض وكل حكمائهم تلتقي مع ما خطه الإسلام من نظم وقوانين.

العالم في مخاض وسيلد الإسلام... تلك هي الحقيقة الواضحة، الإسلام اليوم عاد يكتسح أوربا وسائر بقاع الأرض، ويشعل فتيله على الرغم من ضعف المسلمين وضعف المبشرين بتعاليمه، وعلى كثرة الواقفين في وجهه...

نزيف الحروب لا يوقفها إلا الإسلام لأنه رسم حقوق الأفراد والأمم.

تدهور الاقتصاد، وغياب العدالة والمساواة لا يصلحه إلا الإسلام..

عبثية المرأة وأثرها في ضياع المجتمعات، وانتشار الخمرة والمخدرات، وما تركته من آثار خطيرة لا يُخلِّص الإنسانية منها إلا الإسلام بعقيدته التي تنغرس في القلوب فتوقد شعلة الإيمان في النفس

وتمنحها الإرادة والعزيمة . .

الأيـدز وأثـره الخطـير اليـوم في إبادة وحصاد الأمم لا ينجيّ منه البشـريـة إلا الإسـلام بطهـارتـه وعفتـه ونقاء أبنائه ومخططه في طريق الزواج الشرعي النظيف بعيداً عن كل العلاقات المشبوهة حفاظاً على المرأة وعلى كرامة البنين ومستقبل الأمة . .

أخطـار الـذرّة والأوزون والتلوث لا يبعد شبح الموت من جرّائها إلا الإسلام .

كرامـة الإنسان المهدورة فوق سطح الأرض لا يعيدها إلا الإسلام فهل ستعي الإنسانية المعاني السامية لهذا الدين فتفتح صدرها وعقلها لاستيعـاب مفـاهيمـه وقيمـه وعنـدهـا فقـط تستطيـع تصحيـح مسار حضارتها قبل فوات الأوان .

وإن لم يكن كذلك فإن التاريخ سجل ـ ومازال ـ بأن كل حضارة عالميـة داخلهـا الـوهن في القيم والأخـلاق والعقيدة والدين فلا بد أنها صائـرة إلى الـزوال، وفي زوال الامبراطوريات العظمى أكبر شاهد . ولعلهم يعتبرون بغيرهم قبل أن تصير حضارتهم عبرة للآخرين ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ . (سورة ق)

الخاتمـــة

حاولت في هذا الكتاب بقدر جهدي وطاقتي وبما منّ الله به عليّ أن أبـدي وجهـاً للإسـلام جديـداً وهـو الـوجـه الذي يتماشى مع كل معطيات الحضارة والعلوم الحديثة. وهو جانب قلما قرأت في ميدانه إلا بحوثاً قليلة لبعض أكابر كتابنا، وكأن مفكرونا ـ سامحهم الله ـ ينفرون من محاولة الربط بين مناحي الحضارة العالمية والإسلام، مع العلم أن كثـيراً من جوانب تلك الحضـارة يكاد يكون ديناً، فالعلم عندما يلتزم العلماء فيه الأمانة العلمية فيصلون إلى نتائج باهرة كثيراً ما تلتقي تلك النتـائـج بثمرات الدين، فليس بين ديننا والعلم هذه الهوة التي تفصل بينه وبين الكنيسة.

حاولت أن أثبت في البـداية أن العقيدة الإسلامية القائمة على التـوحيـد ليست عقيدةالعرب أو العجم، ولا عقيدة شخص أوزمن أو أمة، وإنماهي عقيدة عالمية يلتقي عندها فكر العصر الحديث، وتتلاقى معهـا عقـول المخلصـين الذي توصلوا إلى معرفة الله من بين أبحاثهم ومخابرهم ودراساتهم الميدانية.

ثم أبـديت صفحـة الإسـلام النـاصعـة المشرقة بالعلم وما بناه

الأجداد من حضارة رائدة يوم كان الغرب يغطّ في نوم عميق، والأمانة العلميـة التي حملهـا هؤلاء العلماء وكيف أوصلوا تلك الرسالة إلى كل من عرفـوه أو اتصـل بهم، وكيف باركـوا شعـوب البلدان المفتـوحة بما توصلوا إليه من علوم ومبادىء وقيم ثم قارنت بينها وبين حضارة الغرب بذكر مزالق تلك الحضارة والتي زلت بها القدم بمبادىء وضعية أهدرت كرامة الإنسان وأدت به إلى العبث والضياع.

أمـا بقيـة الفصـول من الفصل الخامس إلى النهاية فقد عالجت فيهـا بعض قضـايـا متنوعة من قضايا العصر على ضوء الإسلام، منها قضايا سياسية وفكرية وإنسانية وربطت بين كل قضية وبين دور الدين بحيث يتجلى وجه الدين في أسمى إشراقته.

وما تزال أمامي فرصة كبيرة بإذن الله لمتابعة تلك القضايا العالمية وتـرجمتهـا بحسب مفهـوم الدين لنثبت أن الدين ليس بعيداً عن الحياة ولا معتزلاً لها بل هو في قلب المعركة ومع تطور الإنسان علماً وحكمة وأخلاقاً..

فالـدين لا ينكـر التطـور ولكنه ينكر أن يكون وسيلة لغاية دنيئة هي إفسـاد المجتمعـات الإنسـانيـة ونشـر الإلحـاد، والدين لا يعادي الشيـوعيـة إلا لأنهـا اتخذت موقفاً من بداية نشوئها ضد التوحيد عقيدة الفطـرة الإنسـانيـة وسنت مبادىء أدت بالإنسان إلى مأزق حرج نراه الآن يريق ماء وجهه محاولاً التراجع عنه.

والـدين لا يرضـى للمـجتمـع الإنسـاني أن تقتله الخمـرة

والمخدرات ويظل صامتاً دون أن يعلن احتجاجه على تلك المجتمعات ويرسم لها طريق الخلاص.

والدين الذي ضمن سعادة الإنسان على الأرض يأسف لهذا الإنسان وهو يحاول أن يفسد البيئة من حوله، من بين يديه ومن فوق رأسه فيلوث الماء والهواء ويخرق طبقة الأوزون فيهلك نفسه ومن معه. والدين أخيراً لا يرضى أن تتآمر القوى العظمى مع أذنابها لطرد شعب فلسطين أو أي شعب آخر من أرضه بقوة السلاح والظلم والغدر والعدوان.

الدين هدية الله إلى خلقه لتنظيم حياتهم وبرنامج اجتماعي وسياسي واقتصادي وحضاري يبني عزة الإنسان وكرامته على الأرض، فإذا رفضت الإنسانية ـ وما أظنها تفعل ـ هذا الدين فعلى نفسها جنت براقش[٩٦] وإذا قصّر المسلمون في أداء هذا الواجب فإنما يفعلون ذلك لضعف إيمانهم، وإلا فالكل مأمورون بتبليغ دعوة الله في الأرض ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

فلنكن على وعي كامل بديننا، فهماً وعملاً وتطبيقاً وإخلاصاً وتبليغاً، ونربط بينه وبين كل تيارات الحضارة لنرى ما يلتقي منها مع الإسلام وما يتعارض معه، فما كان الدين يوماً متخلفاً عن ركب

(٩٦) مثل يضرب لمن يسيء إلى نفسه بيده.

الحضارة بل كان قائدها وربانها عبر التاريخ . . .

ولنحمل هذه الأمانة بكل شرف وإخلاص فهي عزّنا وكرامتنا، وكرامة لبني الإنسان على وجه الأرض ولنكن شهداء على الأمم كما أراد الله لنا أن نكون ولنكن عند حسن ظن الله بنا فلا نتقاعس عن أداء الأمانة وتبليغ الرسالة. إن المجتمع الإنساني اليوم جدُّ متعطِّش إلى منهج الإسلام فما إن يطّلعوا على بعض أسراره ومناحيه حتى يسلموا ويصبحوا دعاة إلى الله. المجتمع الإنساني ينتظر المخلص من كوابيس الحضارة وضياع الإنسان، فلنكن نحن المخلصين وحملة مشعل الحرية والنور والحياة لكل بني الإنسان، وما أروعها كلمة تهدي بها الحائر وترشد بها الضال وتفتح بها على الحق عيوناً رمداً طالما عميت عن جادة الحق. . . فلنكن من ﴿الذين يُبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾. (سورة الأحزاب)■

الفهـرس

الصفحـة